

مصطفى محمود

الخروج من التابوت



كانت العرب تخفض شوارع ضيقة مليئة بالحفر وبين حين وآخر يتصاعد الرشاش فيغرق النوافذ وينزل السائق لينتزع العرب من حفرة عميقة مليئة بماء المطر ، ثم يعود ليكركر في طريقه ونحن نتخضض في أماكتنا والعرق يسيل على جباهنا من شدة الرطوبة .. وكان الدليل « كاكوما » إلى جوارى يصف المناظر التي نمر بها ويشير بيده قائلا :

هذه دلهى عاصمة الهند القديمة شيدت سنة ١٦٣٨ .. وهذه العمار التي تراها يعود تاريخها لأكثر من ثلاثمائة عام وهذا النهر الذي يتهادى أمامنا هو نهر « جمنا » أحد أفرع نهر الكنجج ..

وكان على الشاطيء أمامى مئات الهنود الفقراء وقد افترشوا الأرض ونصبوا خياماً مهلهلة من الخرق القديمة وكان الذباب والقذارة فى كل مكان حيثما أرسلت بصرى ..

وساءلت نفسى .. من أين أتى طاغور بكل الجمال والنقاء والشاعرية التي قطرها فى قصائده ودواوينه كالرحيق المسكر ..

كانت العرب تخفض شوارع ضيقة مليئة بالحفر وبين حين
وآخر يتصاعد الرشاش فيغرق النوافذ وينزل السائق لينتزع العرب
من حفرة عميقة مليئة بماء المطر ، ثم يعود ليكرر في طريقه ونحن
نتخضم نخض في أماكتنا والعرق يسيل على جباهنا من شدة الرطوبة ..
وكان الدليل « كاكوما » إلى جوارى يصف المناظر التي نمر بها
ويشير بيده قائلاً :

هذه دلهي عاصمة الهند القديمة شيدت سنة ١٦٣٨ .. وهذه العمار
التي تراها يعود تاريخها لأكثر من ثلاثمائة عام وهذا النهر الذي
يتهادى أمامنا هو نهر « جمنا » أحد أفرع نهر الكنجج ..

وكان على الشاطئ أمامي مئات الهنود الفقراء وقد افترشوا
الأرض ونصبوا خياماً مهلهلة من الخرق القديمة وكان الذباب والقذارة
في كل مكان حينما أرسلت بصري ..

وساءلت نفسي .. من أين أتى طاغور بكل الجمال والنقاء
والشاعرية التي قطرها في قصائده ودواوينه كالرحيق المسكر ..

كانت الصورة الأولى التي طالعتني عن الهند صورة حزينة تعيسة
ولم تكن تبدو لي بالمكان المختار الذي يلهم الشاعر بمثل هذه الأبيات
السماوية ..

وكان اليوم هو اليوم الأول في الاحتفالات السنوية بذكرى
طاغور ..

والظاهر أني سرحت طويلاً في تساؤلاتي لأن صوت الدليل
«كا كوما» أيقظني وهو يصف قوساً كبيراً أثرياً ويشير بيده إلى
نقوش مكتوبة بلغة سنسكريتية ..

ولم أكن أسمعه وإنما كنت أصغى بكل حواسي إلى عويل ناي
يعزف عن قرب ..

وأيقظ في صوت الناي تلك الوشائج الغامضة التي تضم كل
الشرقيين .. وشعرت كأنما أنا أتقل في وطني .. وكأنما أستمع إلى
أحزاني .. وكأنما هذه الوجوه الدامعة وهذه الأيدي المعروقة التي
تمتد لتشحن هي الأيدي التي أعرفها في الحسين والسيدة وأزقة القاهرة
القديمة ..

لم أفق إلا على صوت كا كوما وهو يصيح ..

— لقد وصلنا .. هذه هي القاعة ..

ونظرت إلى الأثر الجليل الذي يرتفع أمامي ..

هذه إذن هي القلعة الحمراء ..

أخيراً .. أنا في الهند ..

وكنت أتأمل البناء الأسطوري الشامخ وأشعر أني عدت ألف
سنة إلى الوراء وعلى عتبات البناء كان هناك زحام .. وكانت هناك
حلقة من الهنود حول فقير هندي يجلس في الوسط على ملاء بيضاء
وقد عقد يديه على صدره ومضى يتمم وقد أغمض عينيه ..

ونظرت إلى دليلي أسأله عما يجري ولكنني فوجئت به يشدني في
اشمزاز ..

— هذه شعودة .. لقد جاء الوقت لتتخلص من هذه الشعودة ..

ولكن الفقير الهندي بدأ يرتفع عن الأرض .. بدأ يطير في الهواء
دون أن تمسك به يد وتجمد الدم في عروقي وأسرعته إلى الحلقة
في فضول مسحور ..

مددت يدي تحت الرجل وقد خيل إلى أن هناك أعمدة خفية
تحمله .. ولكن لم يكن هناك شيء ..

كان الرجل يفتersh الملاءة في الهواء وينام عليها في هدوء وكأنها
بساط سلیمان ، وكا كوما ما زال يشدني من يدي ليدخل في القلعة
هاتفاً ..

— هذه شعودة .. شعودة لا تستحق منك أي اهتمام ..

— ولكن هذا الفقير عنده من العلم ما يفوق علم كل الذين يبنون
الطائرات والنفاثات ..

— سيدى .. إننا شعب فقير جداً .. وقد رأيت بنفسك القذى
والأقذار والأدران والأوبئة والأمراض فى كل مكان .. وهذا
الإغراق فى الغيبيات والغوامض هو الذى قعد بنا طوال هذه القرون ..
— ولكن هذه معجزة ..

— إذا كان الرجل يأتى بالمعجزات فلماذا لم ينقذنا وينقذ نفسه
من المجاعات .. إن أول من يموت فى المجاعات هم هؤلاء الفقراء
المشعوذين .. سيدى إنها مأساة .. أنت لا تعرف الهند .. إن المعجزة
الحقيقية هى ما نصنعه الآن .. نحن الآن نصنع الصلب والآلات
الحديثة ونعلم أولادنا فى المدارس .. ماذا فعل صاحبك بعد أن أتى
بمعجزته .. إنه يشحذ .. انظر إنه يشحذ ..

وكان الفقير الهندى قد عقد ذراعيه على صدره وراح يثلى
الروبيات التى يلقى بها المتفرجون فى حجره دون أن ينطق بحرف ..
وشدنى كاكوما من يدى وصعدت على درج القلعة .. وراح
يصف لى النقوش على السقف والجدران ويتكلم كلاماً كثيراً عن
تاريخ القلعة وعن الذى بناها وعن العصور التى تعاقبت عليها ..
ولكنى لم أكن أسمع .. كنت ما زلت أفكر فى الرجل الذى طار ..

— ولكنى لا أرى فى الأمر شعوضة .. إن للرجل قدرة خارقة ..
هذه معجزة واضحة لكل ذى عينين ..

— أين المعجزة .. أين القدرة الخارقة .. إذا كان للرجل تلك
القدرة الخارقة فلماذا لا يعمل بها لياً كل بدلا من حياة الجوع والمرض
والفقر التى يعيشها ..

— ولكنه يطير .. ألا ترى ... إنه يطير فى الهواء ..

— إن الطائرة تطير أسرع منه .. إننا فى عصر الصواريخ والنفاثات
والأقمار الصناعية .. إنه مواصلة متخلفة جداً ..

— ولكنه يأتى بشيء خارق يخالف جميع القوانين ..

وكان الفقير الهندى قد بدأ يهبط بهدوء إلى الأرض وكأنه يهبط
بمظلة .. حتى استقرت ملأته على الأرض .. وكان ما يزال على حاله
مغمض العينين يتمتم .. بينما راح الدليل يبرطم فى ضيق واضح ..

— ألا ترى أنه لو عمل وفقاً للقوانين لوصل إلى نتيجة أحسن
وأضمن .. إن إخوانه الهند الذين دخلوا كليات الهندسة والطيران
يخترعون أشياء أحسن .. إننا الآن فى عصر العلم .. ولا شيء يؤخر
الهند سوى هؤلاء المشعوذين .. إنه لأمر مخجل .. أمر مشين .. العالم
يتقدم مسرعاً ليغزو الفضاء ونحن ما زلنا فى عصر الحواة نأكل
الثعابين ونمشى على المسامير ونخطو على الهواء ..

جلس على ملاءة وعقد يديه على صدره وأغمض عينيه وطار.. هكذا ببساطة .. بدون مروحة وبدون موتور وبدون وقود .. بمجرد الإرادة .. بقوة العقل الخالص ..

أى إرادة خارقة نافذة وراء هاتين العينين المغمضتين ..

كان منطق الدليل في غضبه وثورته يبدو لي شاحباً .. ولم تكن كل هذه الثورة تعنى لي شيئاً أكثر من غضبة قومية في غير محلها .. إنه يتكلم عن العلم .. أى علم ! ؟ .. وأمامنا علم فوق كل العلوم . وماذا يضير الفقير في أنه يشحذ .. وما ذنبه في أن الحظوظ والأرزاق في هذه الدنيا موزعة .. هكذا ..

كنت أرى الرجل وقد عقد يديه على صدره وطار .. وطار .. وأقول لنفسى .. كيف .. وتسرى في بدنى الرعدة ..

هل يمكن .. أن يخرق القانون الطبيعى بهذه البساطة .. أم أنه لا قانون هناك ..

أم أن الإرادة هى القانون الأعلى فوق جميع القوانين ..

ولكنى أريد الطيران فلا أستطيع الطيران ، ولا أستطيع أن أرفع نفسى إلا قفزاً بقوة العضلات ثم أعود فأقع على الأرض

قليل الحيلة مهيف الساق .. بينما الرجل يتمدد في الهواء مغمض العينين وكأنه يسبح على بحر من الزئبق ..

إنه يطير في وضوح النهار ..

عريانياً إلا من خرقة لاتسكاد تستره ، ممدداً على الهواء كأنه ممدد على فراشه .

لاحيلة هناك ولا شعوذة ..

كيف ! ؟ ..

كيف ! ؟ ..

أريد أحداً أسأله وأكلمه وأناقشه وأفصح له بحيرتى ..

الدليل الذى يرافقتى يكلمنى عن القلعة وعن ماضى الهند المذهل .. وكلما عدت إلى الموضوع أشاح بيديه ..

مالى أنا وهذه الحجارة إذا كانت من رخام أو من مرمر ..

هذه القلعة رفعها إنسان بالجهد الجهد والعناء والعرق ..

ولكن هناك إنسان رفع نفسه .. تمدد على الأرض وطار .. دون أن يبذل جهداً .. ودون أن تنقبض له عضلة .. استرخى في اطمئنان كأنه لا يفعل شيئاً ..

ثم فعل مستحيلاً ..

طول الوقت وأنا أصعد درجات القلعة ، وأنا أدور في شرفاتها .

وأنا أعود في طريقى عبر الشوارع الضيقة المليئة بالحفر ..

وأنا أدخل بيودلهى ..

وأنا أصل إلى فندق أشوكا حيث أنزل مع الوفد الذى أرافقه ..

وأنا أتناول عشاى ..

وأنا أضع رأسى على فراشى لأنام ..

وأنا مطارد برؤيا لاتفارقنى ...

رؤيا رجل تمسدد على الأرض وأنغمض عينيه فى استرخاء

وطار .. هل كنت أحلم ..

لا.. أنا عائد لتوى من رحلة نهار شاقة .. أنا يقظان .. حواسى

كلها حاضرة ..

لم أستطع النوم ..

قمت من فراشى وفتحت النافذة ..

وقفت أننسم هواء نوفمبر .. الرقيق .. فكرت طويلاً ..

— ١٠ —

كل ما قرأت من علوم لم يسعفنى ..

عملى كمفتش آثار ودارس للغة المصرية القديمة ..

كنت قد بدأت أكتب الأوراق الأولى فى رسالة دكتوراه

فى اللغة الفيروغليزية ..

كل هذا لاشئ ..

أنا لا أفهم شيئاً ..

لقد عشت طول حياتى جاهلاً ..

ارتديت ثيابى ونزلت بهو الفندق ..

كانت الساعة متأخرة من الليل وكان الجو خالياً .. إلا من شبح

واحد يجلس فى ركن يشرب ..

إنه صديقنا أمرى خان المرافق لوفدنا (يبدو أن اسمه محرف

من عمرو خان) .. وشعرت بالراحة وأنا أنطلق إلى وجهه الرقيق

المثقف ..

أخيراً وجدت من يستمع إلى ويفهمنى ..

وكان الرجل ينظر إلى بابتسامة تتسع فى ترحيب كلما اقتربت

منه ...

مد يديه مرحباً وقال :

— ١١ —

— أرجو أن تكون مستريحاً في الفندق .. يبدو أنك لم تستطع النوم .. هل الجو يضايقك .. إن شهر نوفمبر ألطف الشهور جواً عندنا ..

— إنه ليس شيئاً خاصاً بالنوم أو الحر أو الفندق .. إني .. إني لا أعرف ماذا أقول .. لقد شاهدت شيئاً حيرني .. لقد كنت اليوم في القلعة الحمراء ..

ورأيت يبتسم ويردف مقاطعاً في أدب ..

— إنه الفقير « براهيم » واجيسوارا .. أنا أعرف ..

— إنك لن تقول إنه مشعوذ كما قال الدليل .. لقد رأيته بعيني هاتين ..

— لا ، إنه ليس مشعوذاً .. إن بعض الشباب العصري عندنا أصبح يكره هؤلاء الفقراء لأنهم ينشرون حولهم جواً من الإيمان بالروحانية .. وهم يشكلون فيما بينهم جمعيات لمحاربتهم .. وأنت تعرف أن مهاتما غاندي قتل بيد واحد من هؤلاء المتعصبين .. ولا بد أن دليلك كان من هؤلاء الشبان .. إنها القصة المعادة .. قصة الصراع بين الجديد والقديم ..

— ولكن هل يمكن .. هل يمكن أن يفعلها .. أن يتمدد على الأرض وبطير .. لقد رأيته بعيني .. إنها لا يمكن أن تكون خدعة .. — إنها ليست خدعة أنا أعرف براهيم واجيسوارا .. وهو صديقي .. لقد رأيته يدفن نفسه حياً ويعيش تحت التراب أياماً ..

ورأيت يتحكم في نبضات قلبه فيخفض سرعتها إلى ثلاثين نبضة في الدقيقة ويرفع بها إلى مائة بمجرد الإدارة .. ورأيت يتحكم في تردد شرايينه وانقباضها فيمد لك يده فإذا هي حمراء محتقنة ويمد لك الأخرى فإذا هي صفراء غاص منها الدم .. إنه رجل عجيب .. عنده هبات غير طبيعية .. وهذا كل ما يمكن قوله .. — ولكن كيف .. كيف ؟

— هناك أشياء لا نعرفها ويبدو أن عقولنا تملك قوى ذاتية تستطيع أن تؤثر بها في الأشياء من غير طريق الجسد والحواس .. لقد اكتشفنا قوة البخار والكهرباء والذرة ولكني أعتقد أننا يوماً ما سوف نضيف مصدراً آخر خطيراً للقوة .. هي قوة العقل نفسه .. — تقصد الروح ..

— لا أدري .. سمها الروح أو العقل أو النفس .. إنها كلمات تؤدي إلى الكثير من الخلط ..

— قل لي بصراحة هل تعتقد ببقاء الإنسان بعد موته ..

— إذا كانت الشمعة حينما تنطفئ يظل نورها يرتحل ملايين السنين في الفضاء حيث يمكن أن يلتقط ويشاهد .. وهذا شأن شمعة .. فما بالك بالإنسان تنطفئ حياته .. كيف تستبعد أن يكون له بقاء بعد موته .. أنظر إلى السماء ترى بين النجوم اللوامع نجوماً تتألق ، يقول لك الفلكيون أن نورها انطفأ من ملايين السنين .. وهذا شأن المادة باقية أبداً .. تتحول وتتحول ولكنها لا تنفنى فما بالك بالإنسان وهو أرقى مادة في الوجود ..

ثم تعال لنفكر معاً .. ما المادة التي يطنطن بها الماديون .. إنها لم تعد في ضوء العلم المادة الصلبة التي نعرفها وإنما تبخرت إلى خلاء منثورة فيه ذرات .. والذرات قال لنا العلم أيضاً إنها خلاء منثورة فيه ألكترونات تدور حول أنوية من البروتونات .. وما الألكترونات والبروتونات في النهاية إلا شحنات كهربائية .. أى طاقة .. مجرد طاقة .. إذن فالمادة طاقة .. نشاط .. مجرد نشاط موجى .. مجرد حادثة تجرى في الفضاء المطلق ..

وتوقف أمرى خان ليرتشف رشفة من كأسه ، ثم صفق للجرسون ليطلب لى كأساً .. ولكنى طلبت كوباً من عصير الليمون ..

كنت أريد أن أحتفظ بعقلي يقظاً متفتحاً لكل كلمة يقولها .. وأردف أمرى خان وهو يصب لنفسه كأساً ثانية ..

— إذا كنت قرأت النسبية فأنت تعرف أن أينشتين قال إن كل جسم له مجال حوله وأن هناك بعداً رابعاً غير مرئى للمادة هو الزمن ، نعرفه بالحدس والتخمين ، وتقصر حواسنا المباشرة عن إدراكه .. فلماذا تعجب إذا قال لك علماء الروح إن الجسم الإنسانى له مجال مغناطيسى حوله وأن الروح تعيش في العالم الرباعى الأبعاد وتدركه .. وأنها ذات طبيعة موجية تمكنها من اختراق الحجب .. وأنها حادثة من الحوادث التي تجرى فينا وحولنا في الفضاء المطلق ..

إننا نرى الأشعة البنفسجية ولا نرى الأشعة فوق البنفسجية ، لأن أمواجها أقصر وذبذبتها أسرع .. وعلم الطبيعة يقول لنا أنه كما كانت الذبذبة أسرع والموجة أقصر فإنها تكون أكثر نفاذاً واختراقاً للمواد وأكثر خفاء على الحواس .. وما الأرواح إلا هذه المخاضات الموجية ذات الذبذبة العالية .. فهي تخرقنا وهي فينا وهي حولنا ونحن لا نسمعها ولا نراها ..

وليس هناك ما يدعون لأن نتصور أنه لا توجد بين أطوال الأمواج والذبذبات إلا الأمواج والذبذبات التي أدركناها بمقاييسنا .. والطبيعى أن نتصور أن هناك مراتب ودرجات من الذبذبة لا نهاية لها ..

والنسبية تقول لنا أننا لو سرنا بسرعة الضوء لرأينا شعاع الضوء الذى يسير بجانبنا له ملمس ومظهر المادة الصلبة وكأنه قضيب من حديد ..

وربما لو سرنا بهذه السرعة لرأينا الأرواح أجساماً متشاقلة ملموسة كأجسامنا ..

إن ما يظهر لنا من أمر هذا الكون يتوقف على الموقف النسبى الذى نلاحظ منه الأشياء والحقيقة يمكن أن تتخذ ألف شكل لا عيننا إذا اتخذنا ألف موقف نلاحظها منه .. نقطة الماء إذا نظرنا إليها بالعين غير نقطة الماء إذا نظرنا إليها بالميكروسكوب غير نقطة الماء إذا نظرنا إلى بخارها بالإسبكتروسكوب ..



إن شهادة الخواص سوف تظل تنقل لنا مراتب مختلفة من الحقيقة كلها نسبة بحسب الظروف التي نشاهدها فيها ..

وسكت أمرى خان هذه المرة طويلا وراح يهز الكأس بما فيه من قطع الثلج العائمة ..

وكنيت أنا طول الوقت مشغولا بكل كلمة قالها ..

ثم قطع الصمت قائلا :

— ألا توافقني أن هناك أشياء كثيرة لا نعرفها في هذه الدنيا ..

— أنت محق ..

— أنت كعالم آثار مصرى عشت في القرون البائدة وعاشرت أفروا ما ونظما وعصورا عفا عليها التاريخ ... ألم تشعر مرة وأنت تقرأ مخطوطا من البردى أنك تلمس حقيقة إنسانية ما زالت تنفس حولك .. ألم يعتقد قدماء المصريين في البعث بعد الموت ..

— نعم لقد اعتقدوا بالإله الواحد وبالروح وبالبعث ..

— دون أن ينزل عليهم دين ..

— نعم ..

— وكان هذا حال أكثر الأمم بدائية وأكثر الأمم حضارة ..

— نعم ..

— ألا يدل هذا على أن وجود الروح حقيقة بديهية لا تحتاج إلى إعمال عقل وأنها أمر مفروغ منه وبداهة من بداهات الفطرة .. ألا تبدو هذه الحقيقة غريبة ..

ولقد كانت تبدو هذه الحقيقة غريبة بالفعل ..

وسقط بيننا حاجز الصحة من جديد ..

ولكننا كنا أشد ما نكون تعاطفاً واتصالاً في صمتنا وكأنا نتخاطب كلان بلغة مهموسة .. ومر وقت لم تكن تسمع فيه إلا خشخشة النسيم في الحديقة وطققة الثلج في كأس أمرى خان .

وكانت هناك فكرة تشغلني وتلح على طول الوقت ..

قلت لصديقي ..

— كلامك عن الروح وإن دل على أنك تؤمن بوجودها إلا أنه يدل أيضاً .. وهذا عجيب .. على أنك لا تؤمن بالروحانية على الإطلاق ..

— لا أفهم ماذا تعنى ..

— كلامك عن الروح بأنها أمواج على درجة عالية من الذبذبة معناه أنك تعتقد أن الروح مادة ولكنها مادة أكثر لطفاً وشفافية من مادتنا .. فأنت إذن لست من أنصار الروحانية .. وما تقول به هولون من المادية .. لنسمها المادية الجديدة ..

وابتسم أمرى خان حتى بدت أسنانه البيضاء ثم ضحك قائلاً :

— ألم أقل لك أن المعركة تدور وتدور ثم تنتهى إلى مجرد خلافات إسمية .. لن أخيب أملك .. ولن أدور بك في جدل بيزنطى .. اعتبرنى صاحب نظرية في المادية الجديدة .. مادية رحبت حتى اتسعت لمعانى الروح والחסد .. سيدى في صحتك ..

ورفع كأسه مردفاً :

— لن تتعارك على مجرد خلافات إسمية ..

وشعرت في تلك اللحظة أنه محادث جذاب حقاً وأنى لم أتكبد مشقة السهر من الضحك عيشاً .. فها هنا صديق نادر سوف أستمتع بمراقبته طوال الرحلة ..

ومصطحبه بعربي . وجر وجهه تواضعاً ولم يرد ..

قلت له :

— إن أملى الوحيد الذى أرجو أن تحققه لى في بلدك أن تعرفنى على صديقك الفقير « براهيم » واجيسوارا ..

.. هذا أمل سيء .. اعتر طلبك مجاباً .. غداً بعد الاحتفالات ستبقى بالبراهما واجيسوارا ..

— لا شأن لى بالاحتفالات .. لقد جئت من يادى طالباً الجلوس
بين يدى البراهما .. إنه كل شغلى وشاغلى من اليوم ..

ورأيته يبتسم ابتسامته الواسعة ويقوم محبباً ..

— لك ما تشاء .. أرجو أن تنام جيداً الليلة لتتحمل أعصابك
ما سوف تراه غداً فى حفرة البراهما .. ولقاؤنا غداً فى الصباح
الباكر ..

وضم كفيه ورفعهما إلى أعلى جبهته علامة وداع ..
وافترقا ..

فى طريقنا إلى براهما واجيسوارا كان أمرى خان يحدثنى عن
تاريخ حياة البراهما ويروى لى طفولته المترفة والقصر الكبير الذى
كان يعيش فيه فى كلكتا وكيف تلقى تعليمه فى إنجلترا جنباً إلى جنب
مع أولاد الملوك والأمراء .. وكيف عاد إلى الهند ليخلق بذلته الأنيقة
ويهجر بيته وزوجته ويهم فى الجبال والغابات حافياً عارياً لا تستر
حسده إلا خرقة .

— إن براهما واجيسوارا ليس شحاذاً جاهلاً كما صورلك دليلك
إنه خريج أوكسفورد ويتحدث الإنجليزية بطلاقة ويحيط بالفلسفة
الغربية وآدابها إحاطة متخصص وهو عضو فى جمعية مارلبورن الروحية
ملندن وله رسالة قيمة فى الرياضيات العليا ..

— ولكنها نهاية عجيبة تلك التى وصل إليها البراهما بعد طول
دراسته وتفلسفه ..

— إنه الآن يعيش فى كهف بالجبل وحيداً يصلى طول النهار
وفى وقت الظهيرة ينزل إلى الساحة أمام القلعة الحمراء ليطلع
ناس على الحقيقة ..

— وای حمیه ! ؟ ..

— لقد دفع ثمناً كبيراً في سبيل الوصول إلى هذه الحقيقة ..
حتى الاحترام لم يحصل عليه .. فهذا هو أحد مواطنيه ينظر إليه شئراً
كما ينظر إلى حشرة عالقة بسترته ..

— يبدو لي أنه لم يعد يهتم بهذا الاحترام التقليدي وأنه يتطلع إلى مثل أخرى غير المثل التي نتطلع إليها في حياتنا العادية .

— إن كل ما يطلبه من الدنيا هو خبز كفافه .. وأن يوصل كلمته إلى الدنيا ويمضي ..

وأثناء صعودنا الجبل كان يمر بنا أفراد طائفة الشيخ بشعورهم
المرسلة وعربات الركشا يجرها فقراء الهنود .. والثيران والجواميس
في أعناقها للأجراس .. والأطفال عرايا يستحمون في الحفر التي
ملأها المطر ..

وكان هواء الجبل يرق ويشف كلما صعدنا وتقل مافيه من رطوبة... ويعبق بروائح الأزهار .

وكانت الطيور الملونة ترفرف فوق رؤوسنا من كل جنس ..
والقروود تقفز طليقة على الأشجار وتتخاطف ثمار الجوز ..

وكانت في الطبيعة بكاراة وعذرية تهز القلب ..

— २२ —

وَأَمَّا فَوْهَةٌ كَيْفَ تَبَدَّلَتْ عَلَيْهِ تَعَارِيضُ أَشْحَارٍ تَوَقَّفُ صَادِقُ

* كرم و درختان

و نه یرب معصوم تر قرش و خن برنج به ریش کشیده و نتحسین
 ص م ی ن د خ

وعلى بعد خطوات أمامنا كان يجلس إبراهيم ، عينه مغمضتان
وعمودتي على صدره وشفتاه تلمحان بصالة خافتة .

وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ بِبَطْءٍ حِينَمَا اقْتَرَبْنَا مِنْهُ .

وضم امری خان کفیه و رفعهما إلى أعلى فی تحية سلام و قدمی
 هه یآ :

صديق الدكتور توفيق ، من القاهرة ..

ورفع البراهما كفيه • ضمومتين إلى أعلى يميني • همساً بالهندية
: ريمة :

.. مرحباً بك في بلادنا ..

وعب ليراهما لحظة في داخل كهفه ثم عد بحسن عن يديه
 . . . فو حصره من أوراق لموز عليها بندق ولوز وحصى قدمها إلى ..

تفضل . . . حوُّن تكون بلادنا قد أعجبتك . . .

— إن أروع ما في الهند هو براهما واجيسوارا ..

— عفواً لعلك تقصد أتعس ما في الهند .. لقد بدأت من أسفل السلم .. وهذا طبيعي على أى حال ..

— بل بدأت من أعلى السلم ..

— هذا إطرأ لا أفهم له مبرراً ..

وكان البندق مملحاً وعليه شطة وبدأت أسعل وأعاني من عطش شديد ، وقال البراهما وهو يقودني من يدي :

— هنا بئر قريية .. مياهها عذبة باردة شافية .. دعني أساعدك ..

وغاب في الداخل لحظة وعاد يحمل جرة ليألفها .. وخرجنا نحن الثلاثة إلى ناحية البئر ..

وكانت بئراً عميقة تنحدر إليها المياه في جداول رفيعة من السيول التي تهبط على قمة الجبل .. وكانت للبئر ملام تهبط إلى القاع .. درجاتها منحوتة في الصخر ..

وكانت البئر مليئة لحافتها من السيول التي نزلت منذ أيام .. وكانت مياهها شفافة تكشف عن قاع بعيد غائر مرصع بالحصى ..

ورأيت البراهما يحمل الجرة وينزل درجة درجة في هدوء وهو يقول إن مياه القاع هي أظهر ما في البئر لأنها بعيدة عن الحشرات

وهو لا يرددها الضبع وأنه سيملاً إلى الجرة من ماء القاع .. وكان صول الوقت ينزل في هدوء درجة درجة حتى غمر الماء صدره ثم دفعه ثم رأسه ثم غطاه تماماً وهو ما زال ينزل في هدوء وكأنه يتردى في سدود ردى ليلى ..

هنا حل الرجل ..

وأمسكت بصديقي أهتف به .. البراهما غرق .. البراهما أغرق معه في البئر ..

.. كان صديقي يصعدني في هدوء ويبتسم .. وأنا أصرخ :

كيف تفعل هذا هكذا لا تفعل شيئاً وارجل يعرف

وأمرى حب يحب في هدوء وهو يشير إلى البئر

— انظر إنه لا يغرق .. إنه ما زال يهبط في هدوء تحت الماء مازال إلى القاع .. إنه يعرف طريقه جيداً كأنه في بيته .. ونظرت إلى البئر ..

.. كان البراهما يراى ينزل درجة درجة في هدوء .. حتى بيع "مربع" فحسب تقرفصاء في هدوء وأغمض عينيه وأعرق في الصلاة .. حتى كل شيء .. ثم سكنت حركته تماماً وصرخت :

— البراهما مات .. غرق .. اختنق .. لماذا تحملته هكذا ولا تفعل شيئاً ..

وأجاب أمرى خان فى هدوء ، وهو يحملق فى البئر وينظر إلى
ساعته :

— لبراهم، يصلى بقبه .. هذه عادته دائماً .. يصلى فى كل مكان
تحت ماء .. وفوق الأرض .. وفوق الهواء ..

— ولكن هذا مستحيل .. إنه رجل أخرق .. إنه يخنتق هجدا
فى ثول وهو تحت الماء حيث لا يوجد أكسيجين يتنفسه .. إن الجسم
لا يستطيع أن يعيش بدون أكسيجين إلا ثوان معدودة .. هذه قوانين
بيولوجية ..

— هذه قوانينك وقوانينى نحن الذين ما زلنا فى أولى ابتدائى فى
مدرسة الأسرار .. انظر إلى ساعتك وستعلم كم سيقتى البراهما تحت
الماء بدون أكسيجين .

ونظرت إلى ساعتى فى رعب .. كانت قد مرت دقيقتان منذ
هبوطه تحت الماء وكان عقرب الدقائق يمشى ببطء ويزحف زحفاً
على المينا البيضاء .. وكنت أرتجف من الخوف وقد تثلجت أطرافى ..
خمس دقائق .. عشر دقائق .. وهمس أمرى خان .

— نستطيع أن نجلس فلسنا فى عجلة من أمرنا .. ومثل هذه
الصلوات تطول عادة ..

وشدنى من ذراعى وأجلسنى بجواره على حافة البئر وهمس عاتياً
حينما رأتى أرتجف :

ثم ثقت بى .. تدم جيداً حتى تكون فى حالة عصبية
..

.. ما أراه هو الحيوان عيه ..

.. إن ما تراه هى معجزة العقل وليست معجزة الجوار .. إنك
.. قدرة عقل لثقة على يعاف كل عميات الحياة والسيطرة عليها
.. باردة ..

وكن كيف يتنفس .. لقد مصت خمس عشرة دقيقة .
.. ما يمكن أن يكون جيداً .. هذه جريمة انتحار .. لابد من عمل
..

وكم قد لا بد من هذا القلق الذى لا حدودى منه .. حين
نص .. مع عميات حيوية بيولوجية فيها لا نخرج من الأكسيجين
إلا قدر يسيراً تافهاً .. أقل مما تحتاجه سمكة .. وهو يخص الآن
على هذه الكمية من الأكسيجين الذائب فى الماء ويمتصها عن طريق
جلده .. مثل جنين فى بطن أمه .

— هذه جريمة انتحار .. أنت تهذى .

ونظرت إلى الساعة واستبدت فى الفزع .

ولم يجد أمرى خان بداً من إمساكى وتقييد حركتى حتى
لا تكب حماقة على حد قوله ..

ومضى الوقت رهيباً ..

وهمست وأنا مقيد بذراعي صديقي القويتين .

— إذا مات سوف أسلمك للبوليس .. أنت الذى قتله ..
أنت مسئول ..

وسمعت صديقي يضحك وينظر فى ساعته هاتفاً :

— ٤٥ دقيقة .. انظر ..

ونظرت إلى البئر ورأيت البراهما يتحرك ببطء صاعداً البئر
درجة درجة وفى يده الجرة ..

وحينما أخرج رأسه من تحت الماء أخذ نفساً طويلاً عميقاً وناولنى
الجرة وهو يهمس :

— هذه المياه شافية للأمعاء والكله .. خذ منها جرعة وافية ..

وكنيت أنظر إليه وأنحسسه وأنا غير مصدق .

كيف .. كيف ..

أخذت يديه أقبلهما ولكنه سحبهما بشدة واكتسى خداه
بحمرة الخجل ..

— خذ جرعة من هذه المياه ..

— ولكن يا سيدى كيف .. كيف .. كيف فعلت هذا ..

— وهل فعلت شيئاً غريباً ..

— لقد حطمت جميع القوانين . .

— أنا لم أحطم شيئاً . . لا أحد يستطيع أن يحطم قانوناً .
إن ما فعلته كان وفقاً للقانون . .

— أى قانون .

— القانون الأعلى . . حينما تصعد العصاراة فى النخلة إلى أعلى ض
قانون الجاذبية لعشرات الأقدام فى الهواء . . هل يقول أحد أ
النخلة حطمت قانون الجاذبية . . أم هم يقولون فى علم النبات :
صعدت وفقاً لقانون أعلى من قانون الجاذبية .

— إنهم يقولون إنها صعدت وفقاً لقانون الحياة . .

— وهو أعلى من قانون الجاذبية . . وقانون العقل أعلى من الاثنين
وقانون الإرادة أعلى من الكل . . لقد قمت بإثبات تفاضل القوانين
بتجربة متواضعة أمامك . . هل قرأت عن تفاضل القوانين
فى الرياضة . .

— لا . . لم أقرأ . .

— إنك لم تدرس بما فيه الكفاية . . وهذا كل ما فى الأمر . .
خذ جرعة طيبة من هذه المياه . .

وناولنى الجرة . فأخذتها وأنا غير مصدق . . ولمستها وكأنى
ألمس شبعاً . . وشربت حتى ارتويت . .

وكانت السحب السوداء قد بدأت تتجمع فوق الجبل ثم
انفتحت فجأة كأنها قرب ونزلت سيولا كاسحة .

ورأيت البراهما يرسم الصليب على صدره ، ويتمم بآية
من الإنجيل ، ثم يتمم بآية من القرآن ، ثم يقرأ آية من المزمور
الخامس ، ثم يقرأ من كتاب الدامابادا (كتاب الطريق لبوذا) .
ثم يهمس وهو ينظر إلى السيول التى تجرف الأكواخ الصغيرة
فى طريقها . .

— هناك أطفال يموتون الآن . . علينا أن ننزل لنساعد من هم
فى حاجة إلينا . .

ونزلنا هابطين الجبل . . وبدأ السيل يخف تدريجياً حتى توقف
تماماً حينما بلغنا أقدام الجبل . .

وسطعت الشمس بראה حامية . .

ونظرت فى دهشة إلى الرجل العجيب الذى يحفظ جميع الكتب
الساوية . . ويرتل آيات من جميع الأديان ، ويحيط بالرياضة والعلوم
والفلسفة واللغات . .

أى رجل هو . . ؟ !

وعلى أى دين ؟ ! !

ومن أى ملة ؟ !

وعند أقدام الجبل صادفنا الدليل كاكوما مع بعض من أعضاء الوفود في جولة سياحية . . . وحينما رآني في صحبة البراهما وقف يبرطم ويشير نحونا في سخوية . . .

ورأيت البراهما يضحك ويهمس مشيراً ناحية الرجل . . .

— انظر إلى الظل الذي يلقيه الرجل على الأرض . . .

ونظرت ناحية كاكوما فرأيتَه يلقي على الأرض ظل حمار . . . بأذنين طويلتين مشرعتين ورأس مستطيلة وخشم غليظ . . .

ولم أملك نفسي من الضحك عالياً . . .

والثفت نحوي أمرى خان وضغط على ذراعي هامساً :

— يكفيك ما رأيت لرحلة اليوم . . . لقد اقترب وقت الغذاء ولا أظن أنك ستأكل من طعام البراهما . . .

— ولم لا . . .

فضحك أمرى خان . . .

— إن البراهما لا يأكل شيئاً . . . إنه يتغذى بنفس الطريقة التي يتغذى بها تحت الماء .

— يا صابر . . .

— أظن أنك لم ترتفع بعد إلى مستوى هذا اللون من الغذاء .

— إلى هنا وأعترف أنني مازلت حيواناً وأقل من الحيوان
في الغذاء .

هذه تعجب معي . . .

وهكذا انتهت أذنا من البراهما وانصرفا بعد أن ضم كل منا كفيه
في ثيابه وإجلال واحترام وأنخذني أمرى خان تحت ذراعه
. . . سيطعنني . . . التندوري . . .

— وما هو التندوري . . .

— سوف تعرف ما هو التندوري حينما نصل إلى « موني محل »
مطعم شعبي في الهند .

كنت مازلت أفكر في الرجل الذي أغلق عينيه تحت
نام . . . الرجل الذي يحفظ جميع الكتب السماوية ويؤمن
بـ الأدبيات ويصلي بجميع المذاهب . . . ويتمدد على الأرض إذا
ألم يطير .

لا يكون كما هذا . . .

لا تكون كل هذه الرحلة إلى الهند أضغاث أحلام .

ولكنني سوف آكل التندوري . . .

وفي مطعم « موني محل » قدموا لنا « التندوري » وهي دجاجة
لينة مشوية ومصبوغة بلون احمر فاقع . . . ومعها طبق من الكاري . . .

وطبق آخر اسمه التايوكا (طعام يشبه البطاطا) مع أطباق عديدة
الموز المجفف والمانجو والمخلل والمملح . . وأكواب من عصير
الممزوج بالشطة . . وسلطات من كل لون .

وكانت أكلة حامية ملتبة لاسعة لكثرة ما فيها من بها
حريفة . .

ولكن ما بعقلي من أسئلة محيرة كانت تلسعني أكثر .
سألني صديقي وهو يأكل الدجاجة بيديه .

— هل أحببت الأكلة الهندية . .

— لا أفهم لماذا تضعون الشطة في كل طبق وفي كل
من الطعام . .

— لو لم نفعل هذا لنامت أعمارنا من شدة الكسل و
إن الشطة عندنا قانون بيولوجي . . أعتقد أنه القانون الوحيد
لم يستطع صديقنا البراهما أن يعلو عليه . .

— بيتي وبيت ، أنا أحياناً لا أصدق ما يأتي به ذلك البرا
من أفعال . . هذا غير معقول .

— ما هو الغير معقول . .

— كل ما شاهدته اليوم والأمس غير معقول . . إنه ساحر مشعوذ
إني أحياناً أصدق كا كوما . . تصور إنه يجعل كا كوما يلتقي على الأرض
ظلاً يشبه ظل الحمار . .

— لأن كا كوما بالفعل حمار . . هل تعتقد في تناسخ الأرواح . .
أنا أعتقد أن كا كوما قد حلت فيه روح حمار . .

— ولكن رأي كا كوما يريحني . . الاعتقاد بأن البراهما ساحر
مشعوذ دجال هو رأي مريح جداً . . أما الإيمان بالخوارق التي يأتي
بها فإنه يؤدي إلى الخبال والجنون . . نعم سوف يصيبني هذا
الرجل بالخلبال من طول التفكير فيما يفعله . . أؤكد لك أن كا كوما
على حق . .

— أنت تريد أن تستريح وحسب . . لا تريد أن تواجه
حقيقة رأي تمس . .

— إن الثمن لن يكون أقل من الجنون . هذا الرجل يثير
مشاكل أكبر من عقلي . . أكبر من قدرتي .

— الظاهر أن الشطة كانت أكثر من اللازم . . وأنها تسربت
إلى دماغك . . وإلى مخك . . أنت في حاجة إلى ملطف . .

وصفني أمرى خان للجرسون وكلمه بالهندية . . فغاب
الجرسون لحظة وعاد يحمل صينية عليها عدة أطباق صغيرة بها
ينسون وحبان ومستكة وكمون وسكر نبات . .

وأشار على أمرى خان بأن أمضغ من هذه الأصناف ما أستطيع
قائلاً إنها مهدئة ملطفة ومهضمة . .

— المهم ليس ما أستطيع ولكن ما أستطيع . .

ولم ينتظر أمرى خذ أن أختر ما أستطيع وما أستطيع وإنما
حينئذ من كل صنف وعبأ لي جيوبى . قائلًا بلى سوف أحضر
إلى هذه العظارة الشافية . . وأنى لا أعرف الهند ولا أعرف ماذا
يفعله الطعام الهندى فى الطول .

وغادرنا المطعم . .

ولاحظت أن الهنود يقفون على محطات الأتوبيسات فى طوابق
منظمة وكانت هذه الظاهرة فريدة فى نوعها وغير معهومة بالنسبة
إلى كثرة مظاهر الفوضى الأخرى فى الحياة اليومية فى الهند . .

وركبنا أول تاكسى . .

و نطق بنا مسرعاً إلى الفندق يخترق الشوارع الضيقة والأن
التي يتكدس فيها الزحام فى مهارة غير عادية . .

وقال لى أمرى خان إن عدد سكان الهند أكثر من أربعين
مليون والسبب فى هذه الكثرة أن أغلب السكان ينامون مع غروب
الشمس ولا يحدون إلا لعبة واحدة يلعبونها وهى لعبة النسل . . وأما
هندي فقير لا يفهم ما معنى تحديد النسل فليس عنده شيء آخر
يفعله . . وهو يعتمد على السيول والمجاعات والأوبئة فى تأدية مهمته
تحديد النسل بحماس ونشاط أكثر منه . .

وسكت أمرى خان فجأة وغمز لى قائلًا وهو يشير إمامه إلى
بقرة فى الطريق . .

يخر ماذا سيفعل سائق التاكسى حين يقترب من بقرة . .

و بعد سائق التاكسى كان شيئاً عربياً لمعنى فقد أخطأ
بأنه فهمه وفتح الباب وركب البقرة فى إجلال وتوقير انتظراً
. . . وهو ما يفعله لى . .

وصلنا إلى حشية ونزل حتى مرت بقرة متدنية فى دلال
. . . من هريك . ثم دخلت كرسية أمه عجلة بقيادة
. . .

و أمرى خان

و بعد ذلك من مهندس إلى

— حسناً .. اعتبر نفسك واحداً من أهل الله .

— ومن أصحاب السوابق الذي لم يقبض عليهم بعد .. ليس كذلك ..

— إن اكتشاف عشرة أطباء دجالين لا يعنى أن المهنة كلها دجل .

— هل تريد أن تقول لي أنك تعتقد في خرافة الوسطاء أيضاً ..
— ولم لا .. إن هناك ظواهر في حاجة إلى تفسير .. والوسطاء هي تفسيرها الوحيد .. فلماذا لا يكون تفسيراً مقبولاً .. هل تستطيع أن تفسر لي اتصالنا الفكري منذ لحظات .

— الصدفة .. مجرد الصدفة .

— هذا يعنى أنك تعتبر ما حدث دالاً على لا شيء .. مجرد صدفة ..

— نعم .

— ولكن من الملاحظ من هذه الصدفة تكرار كثيراً في حياتنا بدرجة ينفيها قانون الصدفة نفسه .. وأنت تعرف أن علم النفس اعترف بهذه الظاهرة وأدخلها في عدد ظواهره العلمية تحت أسم « التيلياثية » ..

— إن علم النفس أصبح يدهى أشياء كثيرة هذه الأيام

كنت أذرع غرفتي في الفندق ذهاباً وجيئة ، وقد استغرقت في تفكير شديد والساعة تدق نصف الليل حينما طرق الباب ودخل أمرى خان سائلاً في قلق :

— هل أرسلت في طلبى ؟

وشعرت بالدهشة ، فقد كنت أفكر فيه طول الوقت .. وكنت على وشك أن أرسل في طلبه .

وصارحته بالحقيقة ، فابتسم :

— هذا معناه أن هناك اتصال أفكار بيننا .. لقد أصبحت وسيطاً روحياً بعد خمسة أيام من قدومك إلى الهند .. هذا تقدم تحسد عليه .

وضحككت ..

— وسيطاً روحياً .. هل تعتقد في هذا الكلام الفارغ .. إن هؤلاء الوسطاء يسمونهم في بلادنا المشايخ وأهل الله .. ونصفهم دجالون وأصحاب سوابق .

— هل تسمح لي بأن أدخن غليونى .

وأخرج غليوناً فاخراً أشعله .

— إن ميزة الغليون أن دخانه يطرد البعوض .. نستطيع أن
نفتح النافذة الآن ، فلا خوف من دخول البعوض فى مثل هذ
الظلام .. ومثل هذه المدخنة .. مشتعلة .

وفتح النافذة ، وتدفق نور القمر .

كان القمر بدرأ ..

واتكأ أمرى خان على النافذة ومضى يدخن فى شراة .. ثم
قال بعد فترة صمت :

— منذ خمس سنوات كنت فى إنجلترا مع البراهما واجيسوارا ..
واقترح على البراهما أن نحضر جلسة روحية للوسيلة مسز ماكتزى
فى جمعية مارلبورن بلندن ، فوافقت من باب الفضول ، فأنا مثلك
لا أو من بشىء خارج دائرة حواسى المباشرة ..

وبدأت الجلسة بإطفاء الأنوار وتلاوة بعض الأناشيد الدينية
وعزف الأرغن ، ثم سمعت صوت مسز ماكتزى واضحاً .. إلى
السيد أمرى خان الذى يجلس فى الصف الأول .. هناك رسالة من
والدك الميت ، .. ووقفت مندهشاً بينما كانت السيدة تكتب ما تطلبه
عليها الروح بالكتابة التلقائية .

— ٤٠ —

.. صيبت الأنوار .. وطالعت الرسالة لاحظت أنها مكتوبة
بـ السنسكريتية .. وأن إمضاء والدى عليها واضح ؟ لاشك
.. وأن مصموم الرسالة باختصار أنه سعيد فى العالم الذى يعيش
فيه .. أنه يصلى من أجلنا ..

عندما أطفئت الأنوار من جديد .. قلت الوسيطة .. إن
.. سيد الوالد ما زالت حاضرة وهى تسألك إن كنت تريد
.. صمت لها : أريد أن تصف لى بالتفصيل العالم الذى تعيش
.. وبعد فترة صمت .. بدأت روح والدى تلقى وصفاً تفصيلياً
..

.. بدأت لى مكاني

.. لى وصلى ، وشاربى قصة

.. حتم .. لى .. حريف .. لى لمشوق حدى لى معرفة
..

.. حريف لى وصف روح كان قرب بوصف عيسى

.. هذا يزيد فضولى ..

.. ولت الروح أن العالم الآخر ليس له موقع جغرافى وإنما
.. .. هو ليس مكاناً .. وإنما هو حالة تحذف فيه
..

— ٤١ —

والروح في الآخرة تحتفظ بذاكرتها كاملة ، وهي تستطيع
تستعيد كل تفاصيل حياتها الأرضية . بما فيها من خطايا وذنوب
وتعاني الندم والألم حتى تتطهر ..

وبعض الأرواح تستطيع أن تتخاطب من خلال الأحلام بأقارب
من الأرضيين .

وبعض الأرواح الشريرة تلبس الأجسام الأرضية وتصيبها باللوا
والجنون والأمراض المستعصية ..

وبعض الأرواح الخيرة تلهم أحبائها الخير والمحبة والتوفيق
والبركة ..

وفي العالم الآخر حيوانات مفترسة . ولكنها لا تفترس ، لأنها
فقدت الرغبة في الطعام ، فترى الأسد نائماً في حضن الحمل
وهذه فراشات وحشرات وحيوانات مستأنسة من كل نوع وزهرهم
جميلة من كل لون ..

وليس في الآخرة دول ولا سياسات ولا أحكام .. لأن الأرواح
يحكمها قانون التوافق الطبيعي ، فكل روح في مرتبتها المتفقة مع
ما بلعته من نصيح وحكمة وخير ..

إن الحكمة والمحبة تهبها الذبذبة العالية التي تساعد على

تدوين إلى المرتبة الأرفع التي تناسبها .. بينما لا تستطيع روح منحطة
أن تعلم هذه الذروة ، فتظل في مهاويها السفلية ..

قانون التوافق يعمل في إحقاق العدالة بدون نظم سياسية
وبدون أحكام .. فكل واحد يأخذ مكانه الصحيح ولا يستطيع
أن ينجوره

ولا توجد حروب ، لأن صراع الخير والشر يتخذ مظهراً
عقائرياً ..

ولا يوجد إكراه ولا إجبار ، وإنما حرية مطلقة .

والحرية هناك في التوافق مع القانون السماوي ..

ولا كهولة ولا شيخوخة في الآخرة ، فالأرواح تعود إلى شبابها
وتكوئنها الناضر .

والأطفال ينمون بسرعة إلى طور الشباب ..

وسكت أمرى خان لحظة ، ومضى يدخن ، بينما سألت أنا في
شوة ..

— وماذا عن الجنة والجحيم ..

— الجحيم في الآخرة ليس دائماً الحريق ولا النار ، وإنما هو
مذاب له صور شتى .

لحظة الانفصال بالموت ، تكون لحظة ألمية طويلة ، ~~تستمر~~ للأرواح الشريرة .. وبعد الموت تظل الروح الشريرة ~~تتجسس~~ عاداتها الأرضية ، فيخيل لها أنها ما زالت لها جسد ، وبالتالي ~~تتجسس~~ بالآلام الجسدية التي كانت تعانيها على الأرض .. وتشعر بهجوم والتعب والأمراض وبالأوجاع البدنية .. وقد تستمر هذه الفترة سنوات وقرون حتى تدرك خلاصها ..

وتظل ذنوب الروح الشريرة شاخصة أمامها طول الوقت .. فلقاتل يظل يرى صور ضحاياه ويسمع أبنهم ..

ولا يكون عذاب الروح بصدور حكم محكمة بالإدانة . ولا عذاب تلقائي ، نتيجة لنقصها .. مثل التخممة ، نتيجة الإفراط ~~في~~ الملل نتيجة الكسل .

العذاب جزء من قانون التوافق السماوي .. لا إكراه ولا إجبار .. لكل بحسب عمله .

وبعض الأرواح الشريرة تعيش في عزلة وظلمة مع الأرواح الشريرة أمثالها .. حياة كلها أحقاد وأصغان ..

ويكون عذاب الأرواح المنافقة بافتضاحها ، وعذاب الأرواح المتكبرة بهوانها ، أمام من كانت تحقرهم ، وعذاب الأرواح الإنيائية بحياتها في وحدة ، حيث لا تجد أحداً يعنى بأمرها أو يفكر فيها

ودخائل النفوس تكون مكشوفة لأصحابها في الآخرة ، وهذا هو حرمان ألوان عذاب الأرواح الشريرة ، فهي تعيش في مكاشفة ~~لذاتها~~ المظلمة وخطاياها ..

رخص الأرواح الشريرة تعود بغيرقطاع إلى حيث دفنت ~~جسدها~~ حيث تخلق حول القبر وتشعر بأجسامها تتحلل والدود ينحدر .. وقد تظل تعاني هذا الارتباط الوهمي سنوات ..

رخص الأرواح التي انتحرت تعاني من لحظة تنحارها .. وقد ~~تتجسس~~ روح تنحرت بيلقاء منسب من برج .. أنها طالت تعيش في ~~الجنة~~ .. بحرف بأشبه تهوى من حائق .. وأنها على وشك الارتطام ~~بالصخرة~~ .. وصل هذا الشعور لفظيع يلزمها أكثر من مائة سنة ..

وبعض الأرواح الشريرة يقضى عليها بالعودة إلى لعنة الميلاد . فتدعى من جديد في اللحم والدم ، وتعود إلى الحياة الأرضية لتكفر ~~عن~~ ..

رخص الأرواح المخطئة تشعر بنور الباهر . كأسباح من حديد حترق وتعتنى بصورها ..

ولكن عذاب الأرواح دائماً ، عذاب موقوت محدود له آخر .. وهو ~~يتم~~ في العادة لحظة يقظة الروح وندمها . واكتشافها

لجهالتها وترديها .. في تلك اللحظة ، تخف أثقالها ، وترتفع ذبذبتها .
فتخلق إلى عالم أجمل وأكمل .. ولذا كان عذاب الآخرة لولا مر
التطور والارتقاء والتعلم ، لا ضرباً من التنكيل والانتقام .. بل
عذاب لفترة وليس للأبد ..

أما الجنة ، فهي حياة الروح ، في محبة وعمل وارتقاء دائم ،
آفاق لا نهائية ، حيث تبلغ الروح الأعظم وتندمج فيه ..

وسكت أمرى خان ، ومضى يدخن ويتطلع إلى القمر
قلت في استغراب ..

— هذه الصورة عن العالم الآخر تشبه فكرة أفلاطون
عالم المثل .. إنها أشبه بالخيال الأرضي منها بالخيال الروحي ..
أعتقد أن ما قالته الوسيطة مسرماً كثرى هي تصوراتها الشخصية
وقراءاتها الشخصية في الفلسفة والتصوف .. وأن ما رويته
العالم الآخر ، هو تخميناتها ، ولا دخل للأرواح في الأمر ..

— من الجائز .. إنما أحببت أن أطلعك على ما سمعت .. ولا أنكر
أنى فكرت مثلك ساعتها .. برغم الرسالة المكتوبة بالسفسكية
وعليها توقيع والدي ..

— إن الوسطاء المحترفين في العادة يتقنون اللغات القديمة ..
تجارتهم الراجحة .. وهم يعرفون كيف يروجونها ..

— لقد كانت هذه نظريتي .. ولكنى عدت فقلت لنفسي ..
ولماذا لا يكون أفلاطون في نظريته عن المثل .. وسيطاً ملهماً أكثر
منه فيلسوف .. ألا يمكن أن نعتبر الشعر والفلسفة والموسيقى إلهامات
تصلنا في لحظات الصفاء .. شأنها شأن أية وساطة .. ويكون أفلاطون
في جمهوريته في هذه الحالة يروي حقيقة أكثر مما يروي فرضاً
وسمياً ..

— هذا غاية في الشطح .. لم يبق إلا أن تصنع لي أجنحة وأنا
واقف بجوارك ..

— صدقني أن لنا أجنحة خفية ، هي عقولنا وأرواحنا ..

— سوف تتعب نفسك كثيراً يا صديقي .. أما أنا فقد أرحت
نفسي من كل هذه الفروض .. أنا بشر من لحم ودم وحواس ..
لا شيء حقيقي سوى الواقع اليومي الذي أعيشه ..

— وماذا تقول فيما يفعله البراهمة .. أليس واقعاً لمسته
يـث ..

— لقد اعتبرت ما رأيت ، شعوزة واحتيالاً ، وخداع حواس ،
وأرحت نفسي ..

— حينما تبدأ بتكذيب حواسك .. فقد بدأت قصة تعبك ،
صدقني ..

لا راحة في هذا الطريق الذي سلكته أبداً ..

— إلى أفضل أن أفكر على طريقة ك كوما ..

— لا تنس أن جميع العلوم اليقينية التي تعتز بها قد بدأت على شكل خرافات وأساطير ، ولو تتبع منشأ الطب وعلم النفس والطبيعة والكيمياء والذرة ، لعجبت في أنها كلها بدأت بتخمينات وشطحات وأحاجي ، مثل هذه الأحاجي التي يقدمها علم الأرواح تماماً ..

.. حسناً .. سوف أنتظر حتى يصبح علم الأرواح علماً يقينياً .
بدلاً من أن أتعب نفسي في الأحاجي .

— ولماذا لا تعمل شيئاً بدلاً من الانتظار .. فقد نستطيع — إذا فكرنا سوياً — أن نصل إلى شيء .. وأن نختصر طريق الضلال الذي نسير فيه ..

هل نسيت أن المجال المغنطيسي للأرض ظل مجهولاً حتى اكتشف بواسطة الحجر المغنطيسي صدفة .. وبالمثل كان الوسطاء هم البوصلة التي كشفت المجال الروحي للإنسان .. هكذا .. بالصدفة أيضاً .. صدفة الإلهام ..

— إنني رجل علم .. أعطني مقدمات معقولة أولاً ، وأنا أسير معك إلى آخر الدنيا ..

إما أن أبدأ رحلتى بلا معقول .. فإن النهاية سوف تكون معروفة سلفاً .. إنها مستشفى المجاذيب ..



- فكر قليلاً . . إن كل ما رأيت وسمعت هو المقبول بعينه . . كل ما في الأمر أنك يجب أن تطرح عنك التفكير العادي والمبتذل والمألوف . . وتفكر بعمق . . بعمق طفل ينظر إلى الدنيا من جديد . .

- بعمق طفل . . لقد قلتها . .

- إننا ما زلنا في طفولة الفكر . صدقتي . . وهذا النصيح الذي يصوره لنا اليقين . . هو نصيح زائف . . فلا يقين هناك . . أكثر من يقين للترجيح والاحتمال . .

- ما زلت أفضل طريقة كما كوما في النظر إلى الأمور . ليس لدينا وقت للشطح في المجهول . . هناك أمر عاجلة تنتظرنا . . والعالم أفقر وأنعم من أن نصيح وقتاً طويلاً أخرى من التخمين . .

- أعتقد أن هذا الكلام يضع نهاية واضحة لحديثنا . .

ونظر إلى ساعته مردفاً . .

- لقد أسهرتك أكثر مما ينبغي هذه الليلة . . لقد فات موعد نومك بكثير . . استأذنك . . وأرجو لك نوماً طيباً . .

قال هذا ورفع كفيه مضمومتين في تحية وداع وانصرف . . وبقيت وحدي في الغرفة مع القمر . . والصمت . . والظلام . .

أفكار من حدي . . ونسيت في مذهب رعدة . .
فجاءت وأخرى حلقة . . ولا في ناسكت بقوة . .
من حدي . . شيئاً لا يمكن أن يوصف . .

و نعل الوهم . . وهم القراءات العديدة التي قرأتها عن

بها هو قمر مثل كل الأقمار . . وحديقة مثل كل الحدائق . .
في ليل في الدنيا . . وفندق مثل كل الفنادق . . ويبدو
عقل الذي فقد وضوحه وتزانه . .

من حدي . . وعيني . . فده ناسك بصوت يهمل

من حدي . . وعيني . . فده ناسك بصوت يهمل
من حدي . . وعيني . . فده ناسك بصوت يهمل
من حدي . . وعيني . . فده ناسك بصوت يهمل
من حدي . . وعيني . . فده ناسك بصوت يهمل

من حدي . . وعيني . . فده ناسك بصوت يهمل
من حدي . . وعيني . . فده ناسك بصوت يهمل
من حدي . . وعيني . . فده ناسك بصوت يهمل
من حدي . . وعيني . . فده ناسك بصوت يهمل

لطاغور .. إنها ليست غرفتي بالفعل .. فلم تكن بغرفتي صورة
لطاغور .. لقد كانت هناك صورة لطاغور ، نفس الصورة بالإطار
المذهب ، ولكن في غرفة أمرى خان .. وكان هناك تمثال نصفي
لغاندى .. ها هو بالفعل ..

ونمغمت في دعر .. لقد انتقلت إلى غرفة أمرى خان ..
كيف .. ومتى ؟

وصرخت من الدعر ..

• وخرجت صرختي مبهوكة خافتة مرعبة ..

فتحت عيني فوجدت أمرى خان واقفاً عند رأسي ، وفي يده
منديل به عطور هندية حادة ، يضعه عند أنفي ميتسماً .. همست
في ضعف ..

— أين أنا ..

— أنت في غرفتك في فندق أشوكا ، وفي أمان ، بين أصدقائك
وأحبائك ..

وتضعفت حواسي ، ورأيت نفسي أبكي فجأة .. أبكي في
نعاسة كطفل يتيم ضائع حائر بلا أهل ..

— أنت تبكي .. هذا غير معقول ..

— لقد كدت أفقد عقلي في هذه اللحظات القليلة التي مضت ..
كاد يودى بي كابوس فظيع .. خيل إلى أني انتقلت فجأة ، وأنني
في مكان غير المكان .. كنت أرى هنا تمثالا ، نفس التمثال الذي
على مكتبك .. وعلى الحائط صورة كبيرة لطاغور ، في إطار مذهب ،
نفس الصورة والإطار التي في غرفتك .. هكذا في لحظة .. وكأنني

هواء . . . وكأني تخلفت الجدران وانتقلت إليك دون أن أترك
مكاني . . . كان شيئاً خفيفاً . . .

— نحن في عصر تنتقل فيه كل الأشياء بسهولة . . . صور
تنتقل بالتليفزيون . . . وأصواتنا بالراديو . . . ورسائلنا بالبرق
لم يعد عجباً أن تنتقل أرواحنا . . .

— لم أعد أعجب لأي شيء أراه في بلادكم . . . لو قلت لي أن
روحي خرجت منذ لحظات ، لصدقتك . فقد خيل لي ساعتها أن
روحي خرجت مني . . .

— لقد كنت مغمى عليك تماماً . . .

— لعل مت نصف موت . . .

ورحت أتحسس نفسي غير مصدق . . .

— تصور لقد خيل لي أنني هواء . . . وأرق من الهواء . . .

— نحن هواء . . . وأرق من الهواء . . . ألا تنفذ فينا الإشعاعات ،
كأنها تنفذ في مادة خلاء . . . إن بصرنا كليل جداً . . . إننا لانرى
أنفسنا على حقيقتها . . .

— إننا مخلوقات جديدة بالإشفاق ، مخلوقات عمياء ^{بها} . . .

لقد كنت أشعر ساعتها أنني أصبحت ذلك المخلوق الجدير
بصدق فعلاً ، كنت أشعر أنني في حاجة إلى يد تأخذ بي إلى
الجنة . . . وأني أتقدم زحفاً منذ آلاف السنين . . .
لقد كنت . . .

لقد كنت . . . وأريد أن أعود إلى يدي . . . لن
أعود إلى يدي . . .

لقد كنت . . . كنت لم تكن تقضي بسا أياماً . . . إنك لم
تكن . . . من الضياء . . .

لقد رأيت كل الهند . . . لقد رأيت منها ما يكفي مني وزيدة
لدي . . . عبرتني هذه الأيام القليلة . . . بدلتني . . . جعلت مني إنساناً غير
عادي . . . لقد اكتشفت أنني لم أكن أعيش . . . لم أكن أفهم شيئاً . . .
ومددت له يدي . . .

لقد كنت . . . بيد هدية التي تأخذ يدي . . .

قلت له أنني أريد أن ألتقي بالبراهما . . . أريد أن أحج إليه
لأنني أسمع والبركة ، وأتلم منه شيئاً جديراً بالعلم ، قبل أن
أكون . . .

وأمسكت بيده وتطلعت إليه في قلق . . .

لقد كنا نحن البراهما في كهفه في هذه الساعة المبكرة . . .

قال بإشفاق ، وهو ينظر إلى عيني اللهفاتين :

— نعم إنها ساعة صلواته في العادة ..

— خذني إليه .. إني في أشد الحاجة إلى كلماته ..

* * *

وفي كهف البراهمة ، جلست عند قدمي الرجل الصالح ..

وكانت عيناى تدمعان انفعالا ..

قلت له : إني أريد أن أتعلم .. أريد أن أهتم .. أريد منه أن يأخذ بيدي ويدلني على طريق النجاة . ويقرأ علي من آيات كتابه ..

قل الرجل الصالح في نبرات جليلة ..

— اعلم أن روح الله تملأ الوجود .. وأن كل مافي الوجود من فن وفكر وعلم وجمال ، هي إذاعات من هذه الروح الكونية الخالقة ... وما روحك إلا قبس من هذه الروح الكبرى ، تتلقى منها . أنت أحد آحاد الأحد الأكبر .

اعلم أن هذه الروح الكبرى ليست بشراً ، ولكنها الذات العليا ، والقانون الأسمي ، لكل الوجود .. اعلم أن الحياة لاتصح بغير صلاة .

وأن صلاتك لا تكون نافعة ، إلا حينما تنسى أنك تصلي ، وتتوجه بكليتك إلى روح الوجود في صرخة استنجد واستغاثة ودهشة وإعجاب ، وحب وابتهاال مأخوذ .. فالصلاة ليست كلمة تنفخ بها ، وإنما هي شعور بالقداسة والافتتان والإجلال والحب ومودة .. في المقام الإلهي الأرفع ، وإدراك بأننا قطرة من النبع العظيم ، نعود إليه ..

عند إلهك ، إلهاً موضوعياً ، تتمثل فيه وتصدر عنه جميع القوى .. صبيحة الحكمة . التي يكتشفها العم ببطء ومشقة . وحاول أن تعيش في توافق مع نواميسه الحكيمه ، فهذه هي حريتك .

وتذكر أن الفضلاء من جميع الأديان ، هم في الحقيقة على دين واحد

تذكر أنك تباعد عن روح الله ، كلما تقربت إليه بالطقوس بنية ، والكهانات والمراسيم ، والكلمات الخالية من الشعور ..
لدين الحقيقي هو أن تعبر عن حبك للروح الأعظم ، بحبك لأصديه ..

وحينما تنسى ذاتك في خدمة الآخرين ، سوف تنمو ذاتك وتتعاظم في التركيب والقوة ..

بالعمل والمحبة وخدمة الآخرين ، تعبد إلهك ، وتشعر بجماله ..

كما أنك لا تستطيع أن تكون سعيداً ، وأنت في أسيرة هغية ،
فكذلك لا يمكن أن تكون سعيداً ، وأنت في مجتمع شقى وعالم شقى ..

أنت مسئول لما يحدث لموطنك في آخر الدنيا .. همد هو
الدين .. كل ما تقوله لك أنايتك شره ، لأنها تجعلك في عزلة عن
الآخرين ، وتحره روحك من غذائها الطبيعي . باتصالها بالحياة في
جميع مجالاتها ..

أنايتك تفرك وتجذب روحك ..

تذكر أن السعادة ليست حظاً ، ولا بختاً ، وإنما هي قوة ..

أبواب السعادة لا تفتح إلا من الداخل . من داخل نفسك ..
السعادة تبحثك من الطريقة التي تنظر بها إلى الدنيا ، ومن الطريقة التي
تسلك بها سبيلك .

موقفك المشبع بالحب والتفاؤل يحول عذابك إلى كفاح لذيذ .
ويحول محاربتك للشر ، إلى بطولة ونبل ..

إحساسك بالجمال يجعل الطبيعة تنبض من حولك بالموسيقى
والنغم ..

تفتحك للمعرفة يجعل رحلتك الشاقة ، نزهة مشوقة مذهلة ..

تواضعك يجعل الفشل لا ينال منك ..

تفايك في عملك . يجنبك ملل الفراغ وقنوطه وضجره . ويفتح

تطور معرفة ، ويسر لك مباحج الاكتشاف ونشوة نصر ..
تذكر أن الدين الحق . لا ينقض العلم . لأن الدين الحق هو

منسب الله

الدين الحق . يرتعد أمام منظار جاليليو ، وإنما الذي ارتعد ،
هو الكهوت .

ن عصرنا في حاجة إلى ديانة عصرية إنسانية مصفدة من أدران
الذات . متفتحة للجديد من كل علم ومعرفة . خالية من التعصب
المصرية .. عالمية .. واحدة . . . فلهذا واحد ونواميسه واحدة . . .

ساحل رحل صالح وأسرق في ثمنه

وتسببنا في خشوع

شأنهم ما حية وما لعقل ومن أن وهل
نبي يي يكر ويتكنم

فإن نسمة إشعق .

ساعت السعة هي ي تمرر بر من لقت إن محك هو
مرر تنكير . ولكن ساعة لا تمرر الزمن . ما هي
ساعة للتعبير . . . وكذلك محك ، ما هو إلا خدوم يعبر عن قليل
من عقلك . وما التلازم بين ما يحدث محك من أمراض .
... ت مكر من صهر ب . لا تلامه صوري . كالتلازم بين

ولكنه لا يفسر ارتقاءها إلى فصائل ، أبجل وأرشق وألطف ..
فأوجه المنفعة هما ..

وإذا اعتبرنا أن الفصائل الأجل ، جاءت نتيجة الانتقاء
جنسى . فالسؤال يظل مطروحاً .. ما وجه المنفعة في اختيار
ذكر لأبلى الأجل .. وأين العامل المادى هنا ..

إن التفسير الأكثر قبولاً ، أن هذه المادة الحيوانية ، كان يرشدها
عقل . يوجهها ويهديها ويعطيها الشكل والجسم ، مهما بدا في الظاهر
محكوماً بها ، ولذا كانت عملية التطور بطيئة غاية البطء .

إن التفكير المادى ناقص عاجز ، لا يفسر لنا حياتنا ، وهو
يعطينا إلا عمراً محدوداً شاحباً ، نهايته الموت بلا بعث ، بلا عزاء .

الموت . ثم الظلام . ثم لا شيء ..
نظرة قائمة تسلب الفرد قدسيته ..

هم يعيبون على الشرق أنه سادر في أديانه وروحانياته ..
ولكن الأديان ردت للفرد كرامته وقداسته ، واعتبرته حقيقة
مضائق باقية ، حينما أعطته روحاً تعلو على الموت وتتحدى الفناء ..
وهي بهذا أعطته العزاء والأمل ، وجعلت من عذابه كفارة ، ومن
آلامه فداء ..

مسمار ، وبين ثوب معلق عليه .. إذا اهتز المسمار ، اهتز الثوب ،
وإذا وقع المسمار على الأرض ، وقع الثوب .. ومع ذلك فالثوب
شيء والمسمار شيء آخر .. وكذلك عقلك ، يتجاوز حياتك الدماغية ،
ويبقى بعد فناء الدماغ .. لأنه شيء ، والدماغ شيء آخر ..

قلت في خشوع :

— والحياة .. ما الحياة .. ومن أين .. وإلى أين تنتهى بنا هذه
الدوامة ..

قال البراهما مبتسماً :

— كان أهل الغال أيام الإسكندر ، يتأملون النجوم على حساب
أنها نقوش في السقف ..

وما زلنا إلى الآن نتأمل الحياة ، على أنها ظواهر وهوس .
حدودها ما نلمسه منها بالحواس ، لا نحاول أن ننفذ إلى باطنها
وجوهرها ..

أن اعتقادنا بأن الحياة انفجار كونى ، نشأ بالصدفة ، مثل
اعتقادنا بأن انفجار في مطبعة ، يمكن أن يؤدي بالصدفة إلى أن
تقراص الحروف على شكل قصيدة لطاغور ، واعتقادنا بأن تطور
الحياة وارتقاءها كان بإرشاد الظروف المادية وحدها ، لا يفسر
تطور الحياة أبداً .. أنه قد يفسر ارتقاءها إلى فصائل أقوى وأقدر ،

ألا تشعر بعبقريّة الكون ونظامه وجماله وعدالته من خلال هذه
النظرة الدينيّة ..

ألا تشعر بالراحة ، لأن هناك ناموساً عادلاً يشمك ويرفعك ،
حرّاً مسئولاً باقياً خالداً على الزمان ..

أليس هذا دليل من داخلك على صدق انما ..
— أهي الروحية مرة أخرى —

ابتسم البراهما في سماحة قائلها :

سمها ما تشاء .. نتكن « ماديّة » ، « مادية جديدة » أرق
والطف وأرحب وأذكى من الماديّة التي يفكرون بها في الغرب ..
نحن لا نريد أن نتعارك على أسماء ..

إن روحنا ما هي إلا مادة .. في حالة جديدة لا نعرفها ..

— لقد عقدت بذلك هدنة ، سوف نذكر لك على التاريخ ..

لقد صالحتني على نفسي .

ولمّت طرف رداءه ..

— أنت أجمل ما في الهند ..

— ما أنا إلا تراب الهند .

— سوف يسعدني أن أعود إلى بلدي بنفحة من هذا التراب

المقدس ..

وكان هذا آخر يوم لي في الهند ..

وحينما كنت أضجع قدمي في الطائرة بعد ذلك بساعات ، عائداً
إلى بلدي كان أمرى خان في وداعي ، وكان يقدم لي منديلاً
ملفوفاً ..

— إنها صرة من الملح هدية من البراهما ..

وأخذت المنديل بيد ضنيّة وأنا أهمس ..

— أشكرك على هذه البركة .. سوف يكون هذا الملح ..

ملح حياتي ونورها ..

وصعدت سلم الطائرة وأنا أضمه إلى صدري .

وفي القاع كنت أرى عبد الرسول يصفر في فرح وهو يدق
بفأسه على الباب السرى الذى اكتشفه في قاع البئر ، ويزيح السقطة
الحجرية ، فاتحاً للطريق إلى غرفة الدفن . .

وكننت أنزل الدرجات في حذر ، ومعى معاون الآثار يتحدث
في انفعال عن التحف التى عثر عليها . . أساور وعقود وخواتيم من
الذهب والفضة . مكاحل وأدوات زينة ، من بينها مكشط للأظافر
لإزالة الزوائد ، من النحاس ، مقبضه مرصع باللازورد . . أوانى من
الديوريت والمرمر . . لوحات من العاج ، عليها مناظر للحياة الملكية ،
محفورة حفرأ بارزاً ، تماثيل من الأبنوس . . أقمشة ملونة من
الكتان . . حبوب من القمح ما زالت على حالتها ، وجدت محفوظة
في قوارير . مراوح وعصى وكراسى من الخشب والجلد . . آلات
نفخ موسيقية . .

وتقدمنى معاون داخلا من الباب السرى إلى غرفة الدفن . .

وكان أول ما لفت نظرى أن التحف مكومة في غير نظام حول
لتابوت .

وقال معاون إنها عثر عليها بهذه الصورة .

وكان التابوت المرمر فارغاً ومغطى ، ولا أثر فيه لأى مومياة
أو لأى مخلفات تدل على مومياة .

وكانت تنتظرني أخبار مثيرة لحظة وصولي إلى القاهرة . . .
وجدت على مكتبي بمصلحة الآثار عدداً من أوامر التخليص
بالانتقال فوراً إلى مناطق الحفائر في سقارة والأهرام وتل العمارنة
لمعاينة الكشوف الأثرية التى تمت هناك ، ولقراءة البرديات
المهروغليفية التى عثر عليها ، وكان معنى هذا أن أحزم حقيبتي
وأسافر في الحال . . فلم يكن هناك من يحل محلى في هذه المهمة .
كخبير متخصص في اللغة القديمة . .

وفي الحرائب والأنقاض وبين الحطام وبين أكوام الرديم
حول المصاطب الفرعونية القديمة ، شعرت أنى أعود إلى عالمي . .
ذلك العالم البائد الذى عاشته عشرين عاماً من عملي مفتشاً
بالآثار .

وكان العمال يشيرون إلى البئر الأثرية التى اكتشفت . . .

بئر محفورة في الصخر ، تنزل عمودية مسافة أربعين متراً .

وكان العمال لا يزالون يكسحون الرمال والحصى من داخلها ،
ويكشفون عن درجات السلم التى تصل إلى قاعها . .

وكان الأمر محيراً .

ومعنى هذا ان التابوت لشخص عظيم القدر .

معنى هذا أن المومياء سرقت . .

وإذا كان هذا المتاع هو ما تبقى من المقبرة بعد سرقتها . فلا بد أنه كان متاعاً فخماً هائلاً . . وهذا يؤكد مرة أخرى أهمية الميت على مقداره . .

ولكن إذا كانت المومياء سرقت ، فكيف غفل اللصوص عن هذا المتاع الثمين المكوم بجوارها .

ولماذا كرمت هذه التحف النادرة على هذه الصورة .

ولماذا لم تسرقها اليد التي كومتها . .

ولا حظت أن غرفة الدفن مبطنة بكتل من خشب الأرز . . وهو خشب كان يجلبه الفراعنة ، بإرسال بعثات إلى جبل لبنان . . ومن بين التماثيل التي عثرت عليها في الكومة حول التابوت ، كانت هناك تماثيل صغيرة : لطحان ، وعجانة ، ونخباز ، وكاتب ، وجواري ورافعات ، وحاملات جرار . ووصيفات .

كنت أمام صاحب قصر ، ربما وزير ، أو أمير ، أو ملك . فهؤلاء هم الذين كانوا يدفنون بهذه الأبهة ، ومعهم تماثيل لحاشيتهم وخدمتهم وموظفو ضياعهم ، حتى إذا بعثوا بعد الموت ، كما كانت تقول لهم تعاليمهم القديمة ، وجدوا أنفسهم يستأنفون حياتهم الأولى بكامل أبهنتها ، بين خدمهم وحشمهم . .

وطبقاً للأساطير الفرعونية يخرج من الجسم بعد الموت روح بونية هي « با » وشبح مادي يماثل الميت في كل شيء هو « كا » .

وهذا الشبح المادي يعود بعد الموت ليبحث عن صاحبه ، فإذا وجد جثته حافظة لمعالمها وشكلها ، تذكرها وحل فيها فبعثها حية .

وكيف يسرق السارق جثة لاتنفعه بشيء ، ويترك ذهباً بهذه القيمة . . كان هناك تفسير واحد . . أن المومياء كانت مدفونة في مقبرة أخرى اقتحمها اللصوص وأتلفوا الجثة (على عادة اللصوص أيام الفراعنة) وسرقوا ما أمكنهم سرقة من متاع المقبرة . . ثم فطن الكهنة المشرفون إلى أمر السرقة وما حاق بالجثة من تلف ، فنقلوا التابوت الفارغ إلى مقره الجديد وغطوه ، وأخفوا أمر السرقة عن فرعون . وكوموا ما تبقى من متاع حول التابوت ، وتركوا كل شيء في فوضى ، لأنهم كانوا في عجلة من أمرهم ، وفي رعب من أن يكتشف فرعون ما حدث فيعاقبهم عقاباً شديداً على تقصيرهم في حراسة المقابر (ولم يكن لكهنة المقابر عمل في تلك الأيام سوى حراستها من اللصوص) .

ولهذا حرص الفراعنة على تحنيط جثثهم لحفظ معالمها حتى تستدل عليها « الكا » ..

و « الكا » تستطيع بالسحر والتعاويد ، أن تحل في تمثال الميت أو رسمه أو صورته ، إذا لم تجد جثته .. لأن الصورة تذكرها بشبهها ..

ولأنها مادية فهي تحتاج إلى غذاء ، ولهذا يضع الفراعنة أواني الطعام حول موتاهم لتتغذى « الكا » .. ويقدم الكهنة القرابين الطازجة كل يوم ، ويقرءون الصلوات لتستطيع « الكا » أن تستمد منها غذاءها .

وإذا لم تجد « الكا » غذاء ، فإنها تستطيع أن تتغذى بالسحر ، من رسوم الطعام على الجدران ..

ولهذا جمعت مقابر الفراعنة بين فنون التحنيط والنحت والرسم لأنها الوسائل التي تتعرف بها « الكا » على شكلها وصورتها ، وتعود إلى حياتها الأولى ..

وهم يسمون فرعون « با » إلهة ، إلا من تبع منهم عبادة الشمس « رع » ، وحرص على الانتقال بعد الموت إلى السماء . وهؤلاء هو لأهرامات إقليمية والمراكب الشمسية لمصاحبة رع في رحلته الأزلية عبر السماء .. هؤلاء كان الاندماج في النور الإلهي عن طريق « البا » هدفهم ..

كنت أسترجع في ذهني هذه لأساطير الفرعونية . وأتذكر في

عس الوقت كلمات صديق الهندي ، أمرى خان ، عن الروح - دية اللطيفة ، التي تنتقل بعد الموت إلى عالم من الذبذبات ، أرق من عالمنا ، ولكن يشبه في كل شيء ، فيه فيلات وقصور ومستشفيات و... رس .. وفيه فاكهة وزهور وحيوانات .. وفيه موسيقى وفن وأدب .. وفيه عمل وحب وخير وشر .

ما الفرق بين هذا العالم ، عالم الآخرة ، الذي تصوره الهنود ، « وانكا » الروح المادية .. التي اعتقد فيها الفرعوني ..

وهي مثل روح صاحبنا ، تستطيع عند اللزوم أن تتغذى على الصور والرسوم ..

كان كلام أمرى خان يبدو لي مشابهاً للأساطير الفرعونية ، كما هو مشابه لفكرة المثل الأفلاطونية .

ولو أنى صدقته ، لوجب على أن أصدق الفراعنة ، ولوجب على أن أغرق في عالم الأساطير والخرافات إلى أذني ..

وكنت ما زلت أذكر العالم المسحور الذي عشت فيه مع البراهما ، فتعاودني الرجفة ، وتتخلل رائحة التابوت ، والمكاحل والعطور الجمدة ، حواسي .. فتضاعف من تلك الرجفة .

وترتفع كلمات معاون الآثار مخيفة بربرية .

دانت روه . معناه بالنسبة لى : مهر عدة ليال في فض الطلام
و رموز .

ولفتها في حرص وأودعتها حقيبتى ..

وكان المعاون يشير إلى حلقات نحاسية في جدران الغرفة ،
وإلى جبل من الكتان يتدلى من إحدى هذه الحلقات .. ويسأل ..
ماذا يمكن أن تكون ..

وكنت أكثر منه حيرة . فلم يسبق لى أن رأيت مثل هذه
الحلقات في مقبرة .. وأشارت إلى حقيبتى قائلاً :

- ربما وجدت الجواب هنا ..

قصد في البرديات ..

وكانت الغرفة الثانية تؤدي إلى سرداب وضعت به أسلحة من
كل نوع .. تروس ورماح وخناجر وعصى .. ونهاية السرداب
صماء مغلقة لا تؤدي إلى شيء ..

وكنت أسأل نفسي طول الوقت ..

من يكون الرجل العظيم صاحب المقبرة .

وهل هو : رجل ، أم امرأة ..

إن الأمشاط والمكاحل ، وسكين قص الأظافر ، وأواني
مطور . تشير إلى امرأة .

- تصور هذه الحبات من القمح .. عمرها أربعة آلاف عام .
وهي ما زالت على حالها .. ربما ضمرت قليلاً .. لكنها ما زالت
محتفظة بشكلها ، هل تظن أن هذه الحبات ما زالت حية ..

هل تظن أنها يمكن أن تنمو إذا زرعت .

هل يمكن أن يكون كلامه صحيحاً ؟!

هل يمكن أن تنمو هذه الحبوب بعد أربعة آلاف سنة من
الموت في جب تحت الأرض .. وأمسكت بالحبوب أنفحصها بعينى
المجردة .. ثم بعدسة .

كانت تبدو ضامرة عجفاء ، لكن محتفظة بشكلها ..

ووضعف بعضاً منها في جيبى .. على سبيل البركة ..

هذه حبوب أكل منها الفراعنة رغيفاً منذ أربعة آلاف سنة.

وغاب المعاون في الحجرة الثانية الملاصقة لحجرة الدفن ، ثم
عاد يحمل لفافة من البردى ، بسطها أمامى في فضول .. كانت
مزقة في أماكن .. ولكن الكتابة الهيروغليفية واضحة عليها ..

وقال المعاون إنها ليست البردية الوحيدة التي عثر عليها

فهناك برديات أخرى ..

وقد عثرت بالفعل في الغرفة الثانية على عدة برديات مكتوبة
باللغة الهيروغليفية . وهي اللغة الهيروغليفية المختزلة ..

والأسلحة والتروس والرماح . تشير إلى رجل

هل كانت المقبرة لرجل وزوجته ، ، هذا ماتت من متاعهما
بعد أن سرقت . .

كانت أوراق البردي في حقيبتى تعدنى بالكثير .

وأخذت مذكرات مختصرة بكل ما وجدته في المقبرة .

وعدت إلى منزلى أحتضن أوراقى . وكأنى أحتضن عشيقته . .
وفى صرير عودة هطلت الأمطار بشدة . ولعلت منزلى وثنائى
تعصر عصر . كأنها تسحبة مكتنفة . . وتقطر بالماء . . وفى تلك
الليلة لم أنم .

بسدت أبواب بردية . فى شوق . .

وكانت بردية عجيبة . .

كانت كلها أرقاماً . .

وأن أعرف أن الفراعنة عرفوا الحساب والهندسة ، وبرعوا فى
علوم الرياضة . . ولكنى لم أكن أتوقع أنهم بلغوا هذا القدر من
الدقة والتفوق .

كانت أمامى أرقام عشرية ومعادلات وعمليات جمع وضوح
وضرب الكسور . . ونظرية شبيهة بنظرية مربع الوتر للمثلث ،
وكيف أنه يساوى فى المثلث القائم الزاوية مجموع المربعين

قائمى على الضلعين الآخرين . . ونظرية المتواليات الهندسية . .
سماح لبيئات الهندسة الأقليدية .

والأرقام من الواحد (و ع) إلى المائة (شاع) إلى الألف (خا)
إلى المليون (حح) ومضاعفاتها وكسورها .

روخت أى ثلث . . (رو معناها جزء وخت ثلاثة . . أى
جزء من ثلاثة) ويكتبونها هكذا :



والربع ويكتبونه هكذا :



والجذر التربيعى ويكتبونه هكذا :



وتوقفت عند معادلة لم أفهمها . .

وضاعف من صعوبات القراءة أن البردية مكتوبة بلغة
هيراظيقية . أى هيروغليفية مختزلة ، وكانت بعض الاختزالات
غير مفهومة وغير واضحة .
كان الكاتب أحد علماء الرياضة . وكان يعرض طريقة حسابية
دقيقة . لقياس درجات الزوال الشمسى .

بها إذن مذكرة فلكية . .

وأنا أعرف أن الفراعنة درسوا الفلك ، وعرفوا توقيت الفصول

والشهور وما استأشور منه . تحفظ - التسمية هيروغليفية
تدانة شهور

فشم توت هو توت - نهر و غيلية

وكيهت هو كيهك - نهر و غيلية

وهو هو حوربا - نهر و غيلية

و برموده هو بر حوربا - نهر و غيلية

و برموده هو بر حوربا - نهر و غيلية

و برموده هو بر حوربا - نهر و غيلية

و برموده هو بر حوربا - نهر و غيلية

ولغة القبطية تحفظ لنا لنطق الهيروغليفية . وإن كانت مكنية .
حروف و يه . فكلمة « مس » بالقبطية معناها « يلد ابناً » .

وقد تشبث شمسيون فيها معنى رع عيسى (رع يلد ابناً)
وفض رموز اللغة الهيروغليفية بمساعدة حجر رشيد .

لغة هيروغليفية ممتدة بعد أربعة آلاف سنة . من مزار
يصنعها رهن لأقاصي أديرة بحروف يونانية .

بما قرأه آدمي . هو عهد حي . وليس عهد ميتة .

وظننت أن البردية هي واحدة من عدة برديات تناول في التحنيط .. ولكنني وجدت أنها البردية الوحيدة .

وكانت البردية التالية عن الطب والجراحة

وكانت فيها معلومات عجيبة عن تقدم الطب في ذلك العصر

في مذكرة عن الجروح ، روت البردية كيف كانت الجروح النظيفة تعالج بالخياطة والأربطة اللاصقة وبالحم الطري أول يوم ثم بالأعشاب القابضة والعسل لإيقاف النزيف .

وفي مذكرة عن الحمى ، وجدت هذه النصيحة :

إذا أصيب الجسم بالحمى وحدثت به تقلصات .. وإذا وجدت وجه المريض قد غطاه العرق والزيء ، ونفرت عروق رقبته وتصلبت أسنانه ، وازرق وجهه ، وانقبض فيه ، والنوى حاجباه ، وبدا وكأنه يبكي .. فقل .. هذا مرض لا يُقدر له على شيء ..

وفي مذكرة عن الكسور ..

إذا تفحصت رجلاً مصاباً بكسر في الترقوة ، ووجدت بها قصراً .. فقل .. هذا مرض سأعالجه ، وأطرح الرجل على ظهره ووضعت بين لوحيه شيئاً ملفوفاً ، حتى يبتعد جزءا ترقوته ، ويرجع الكسر إلى موضعه .. وبعد ذلك ثبت وسادة من الكتان على

الجانب الداخلي من ذراعه . وهو نفس العلاج الذي يعالج به الجراحون كسر الترقوة إلى الآن .

والظاهر أنهم لم يجدوا علاجاً للزكام .. وكان حالهم فيه كحالنا .. فقد قرأت هذه التعزيمة لطرد الزكام مكتوبة في البردية :

انصرف يا ابن الزكام ، الذي يكسر العظام ، ويهشم الجمجمة ، وينحر المخ ، ويصيب المرض في فتحات الرأس السبع .. لقد أحضرت لك جرعة خاصة ضدك ..

أما الجرعة فمواد مركبة من لبن امرأة وضعت مولوداً ذكراً ، ومن عصير نبات ، لم أعرف نوعه ..

والأغلب أنها جرعة منظفة لالتهابات الزور .

وفي أمراض العيون قرأت هذه الوصفات :

لعلاج التهاب الجفون ، نقط من الصبر ، وسلفات النحاس ، (التوتيا الزرقاء) تقطر في العين بواسطة ريشة نسر .

وفي مرض الشعرة ..

نصحوا بانتزاعها ، ووضع مرهم من دم الخفاش ..

وللرمد الحبيبي ..

الكحل ، وسلفات النحاس ، وكبريتات الأنثيمون ..

وصادت في البردية أكثر من ثلاثين صنفاً من الأعشاب والنباتات ، والمواد المعدنية ، التي توصف للأمراض .. وبعضها .. أسمع عليه مثل البايونج (لطرده الديدان) . والقرضم (لعلاج الرمد) . والكولشيك والخردل واللفاح والمر والعفص وجوزة الطيب وحب البركة والأفيون والسكران والحشيش وصل السموم وشعر الجن والمانيزيا والزنجار وأملاح الحديد والنحاس والرصاص والأنثيمون .

وقرأت عن ألوان من التخصص عجيبة .. مثل التخصص في تحضير الحقن الشرجية .. ويسمون القائم بها .. راعى الشرج .. هذا عدا التخصصات العادية في أمراض النساء .. وأمراض العيون والكسور .. والجروح .. والحروق .. والأورام .. والأمنان .

وفي البردية وصف دقيق للذبحة الصدرية :

إذا فحصت مريضاً يشكو من آلام في صدره وذراعه وناحية من معدته .. فقل .. هذا مرض خطير .. والموت يهدده ..

وكانت هناك ملاحظات دقيقة عن تشخيص الأورام باحمرارها والدق عليها بالأصبع ..

كنت أمام طبيب كبير وعالم بالفلك والهندسة والحساب والتحنيط .

من يكون .. ؟

هل هو أمحوتب .. الطبيب المهندس العالم ، أيام الملك زوسر ، و ملوك الأسرة الثالثة ، صاحب هرم سقارة المدرج .. والذي قد أنا أنه هو الذي أشرف على بناء الهرم المدرج ووضع تصميمه ؟ ولكني لم أجد له تمثالا واحداً ، ولا رسماً ، ولا اسماً محفوراً في المقبرة ..

ولم يرد ذكره مرة واحدة في البرديات ..

أبكون السبب أن المقبرة ليست مقبرته ، وأنه منقول إليها بعد نهب مقبرته الأصلية ..

عدت إلى الكتب التي كتبت عن أمحوتب .

وظلت أقرأ حتى الصباح حينما ثقلت أجفاني من التعب وكنت ما زلت أفكر في أمحوتب ، وفي التحنيط . وفي علاقة أمحوتب بالتحنيط وبالطب وبالفلك ، وانطبقت أجفاني ، وذهني ما يزال مشغولاً ..

• • •

وفي ما يشبه الحلم ..

أقول ما يشبه الحلم لأنني أعتقد أنني لم أكن نائماً .. وإنما كنت في حالة استرخاء شديد ، وشبه غيبوبة من التعب ..

رأيت ما يشبه أمحوتب في ثيابه الفرعونية .

وحينما اقترب منى ، خيل إلى أن وجهه يلتبس على بوجه آخر
أعرفه ، وكان المنزور الفرعوني الذى يضعه حول خصره ، يشبه
إزاراً آخر ، كان يضعه رجل آخر نصف عريان مثل هذا الرجل

ودقت في وجهه ..

نعم إنه البراهما واجيسوارا ، بعينه ، في ثياب فرعونية
ومشية فرعونية .. وعلى وجهه ذلك الجلال الذى كان على وجه
أمحوتب القديم ..

وابنسم البراهما .. أولعله أمحوتب .. لا أدري ..

وسمعه يقول

— أنا أعرف ما يشغلك .. أنت تريد أن تقرأ بقية البرديات
التي كتبها عن التحنيط .. أنت تريد أن تعرف سر هذا الفن القديم .

قلت وأنا أرتجف .

نعم .

— ولكنه لم يعد سراً .. ولم يعد فناً .. وليس جديراً به
لهالة التي خلقتوها حوله .. حينما كنا نقوم به في الماضي
تركه للمنبوذين من أحط الفئات الشعبية لمارسه ..

إن كل ما أتمناه هو أن أعرف ماذا كانت تلك الفئات
، التي تقوم بالتحنيط ، تفعل ؟ ..

كان التحنيط بكافة عملياته يحتاج إلى سبعين يوماً ، يردد
أثناءها الكهنة الصلوات ، ويشرفون على المراسيم والطقوس ، وقد
تدوا أقنعة ، على هيئة رأس ابن آوى ، تمثل الإله أنوبيس ، وهو
ملوث عندنا ..

وكان المخطط يبدأ عمله بتفريغ الجمجمة ، وكان هذا يحتاج
إلى معرفة دقيقة بتشريح الجمجمة ، لأنه كان يقوم بهذه العملية
بحل خطاف معدني . عن طريق الأنف ، يخرق قاع الجمجمة ،
وينفذ إلى تجويفها .. ثم يدير هذا الخطاف داخل الرأس ، حتى يهرس
نخ . ويحوله إلى هريسة ، يفرغها مرة أخرى من الطريق نفسه ..

وبعد ذلك ، كانوا يفرغون البطن من خلال فتحة من الجانب
اليسرى .

ويستخدم المخطون في ذلك سكيناً من الحجر الصوان ، وكانوا
يفرغون البطن والصدر من أحشائهما ومحتوياتهما ، ماعدا القلب
يتركونه في مكانه موصولاً بشرايينه . والكلية كانوا يتركونها في
مكانها لاصقة بالطهر . . وإذا حدث وانتزع القلب أو إحدى
كليتين بطريقة الخطأ كان يتعين إعادتها إلى مكانها . . وقد كان
هذا ضرورياً لاستمرار الحياة ..

وكان تجويف البطن والصدر يحشى بعد ذلك بالكتان المشبع
بالمواد العطرية والصمغ والنظرون .

أما الأمعاء فكانت تملأ في العادة بالمر والينسون والبصل

بعد غسلها بنبيذ البلح والمواد العطرية . ثم تلف بالضمادات وتحفظ
في أوعية خاصة . .

وكانت فتحة البطن تخاط بعد ذلك ، أو تسد بالشمع المذاب
كما كانت تسد فتحات الأنف والقم والأذنين والعينين بالماء
نفسها . . .

ويأتى بعد ذلك دور التجفيف ، وهو أهم الخطوات لحفظ الجسم وصيانتة . وكنا نستخدم فى ذلك ملح النطرون ، وهو مادة طبيعية ، من خصائصه أنه يمتص الدهن والرطوبة . .

وكان ملح الطرون . بالإضافة إلى هذا . منح مقدسي عندنا
وكان يمزج بالبخور ، ويغسل به الفم ، أثناء الطقوس الدينية .

ولما كان الجلد يتسلخ ، والأظافر تتساقط غالباً أثناء التجفيف بالنظرون ، فقد كان لزاماً على المحبط أن يحيط طرف كل أصبع بكسبان من الذهب ، أو المعدن ، ليضمن بقاء الظفر في موضعه.

وكان يغمس الجثة عمودية حتى العنق ، في أوان كبيرة مليئة بالنظرون ، بحيث يبرز الرأس فوق الحافة ، وبذلك لا يتسلخ ولا يتشوه بالملح .

وبعد الانتهاء من التجفيف . كان الجسم يرفع من المنطرون
ويغسل بمحلول من الملح نفسه ، مضافاً إليه الزيوت العطرية . أما
الأصابع فكانت تصبغ بالحناء . والفجوات الناتجة عن تحلل

- 17 -

ملاحظات في صراف جسم . كبت حسي نسبة كبت . نو
و حش و رم . حتى تعود إلى سابق مظهره الطبيعي .
و كبت . و كبت . و كبت . و كبت .

١- عميق لأخيره تجرى وحسم ثمود على منصفه
٢- ... منصفه ... محبرة ... ألوعات أسفها ، لصرف
٣- ... وكل منصفه عليها كشتان مستعرضتان من
٤- شب . يوضع فوقهما الحسم مرتفعاً عن السطح ، حتى يتمكن
٥- كهنة المختصون بالنضديد . ولت الأربطة . من تأدية عملهم
٦- ... حول الجسم .. وكانت هذه الأربطة تغمس في لصمغ وتنف
٧- في طبقات متعددة حول المومياء .. بينما الكهنة يقرءون الصلوات
٨- ... ي نطمئن كل عضو على رد الحياة إليه .

۱۔ کتب جمعیتہ کا و جمعیوں کی مائتبی میں ہونا
۲۔ ان کے یہ نسخہ و لاوٹہ ہر جہاں و یودعوں کی رکھ
۳۔ و حفرۃ عربیہ

هذا كانت تنتهى عملية التحنيط . التى خضعت حورها كل هذه
طريق سرية

هنا كانت قنناً جديراً بكل هذه المبالغه !!

من يكون إذن فن التحنيط ، من فن النحت ، والموسيقى ،

والمعمار ، وعلوم الهندسة ، والطب ، والفلك ، والرياضيات

يبدو أن خيالكم ذهب بكم بعيداً ..

وسكت .. ونظر إلى مبتسماً ..

وهتفت في حشجة :

— ولكن من أنت .. إني أعرفك .. أعرفك .. أنت البراهما
لقد لقيتك من قبل .. وجلست إليك ..

— منذ أربعة آلاف عام .. ربما ..

أمحوتب .. البراهما .. مستحيل ..

أو الاثنان معاً .. لم لا ..

مستحيل ..

وتزاحمت الكلمات في فمي .. وكنت أريد أن أسأله عن الطب
على أيامه ، وعن الفلك وعن السحر ، وعن الحياة الأخرى ،
ولكنني كنت أتكلم .. فلا تخرج من فمي ألفاظ .. إنما يخرج هواء ..

وكان قد بدأ يعطيني ظهره وينصرف ..

حاولت أن أصرخ لأوقفه ، ولكن صراخي كان يخرج من فمي
هواء لا صوت له ..

— ٨٨ —

كان هو البراهما ذاته في مشيته وجلاله .. ولكن كيف ..

كيف ..

.. كنت أختنق برغبة حادة لا أستطيع أن أحققها ..

.. تنفطت وأنا أعاني ألماً عظيماً في حلقى وصدرى .. وكأني كنت
.. وأنفت لعدة ساعات

وكنت ما زلت منكفئاً على مائدتي وأمامي البردية الأخيرة

.. أن تمالكت حواسي حتى أسرع أدون في عجلة ماسمعه
.. بدأت التحنيط في حلمي

.. خفت عن مرجع هيرودوت .. لأقرأ ما قلده عن التحنيط ..
.. جمع عليه ماسمعه في منامي ..

.. كنت مدحاة حين كنت أكتب ما سمعته مكتوباً مصه ..
.. هيرودوت عن تحنيط .. وهي رواية أنني حري
.. من تكذيبها

.. من هذا كل كلام أمحوتب .. إن فن التحنيط لم يعد فيه
.. وأن ما خالقناه حوله ليس إلا هالة من المبالغات

.. كنت أفكر في أمحوتب الذي رأيته في المنام

هل هو أمحوتب حقاً ؟ ولماذا يقول أنه أمحوتب والبراهما في
.. ت الوقت ..

كيف يكون هو نفسه .. وهو الآخر في نفس الوقت

كيف أكون أنا نفسي ، وأنا الآخر في نفس اللحظة .

وكيف يتعاصر الماضي والحاضر . . أم أنى أهذى .

أم أن انشغالى الشديد ، هو الذى صور لى كل هذه الرؤى .

وقراءاتى فى هيرودوت هى التى أعادت نفسها على لسان هذه
الأشباح التى توهمتها ..

كان نوماً كأنه الموت ..

إننا لا نرى فى الأحلام إلا نفوسنا وانشغالاتنا وهمومنا . .

وكأنما انسدت عدة أستار سوداء بعضها فوق بعض أمام
الرؤى .

ونحن فى العادة نتحدث على لسان كل من نسمعهم . نؤكل من
نراهم فى أحلامنا . .

وكأنما ثقلت الرأس ، فإذا هى جبل من حديد .

وكأنما ذابت الأطراف فأصبحت عدماً ..

ولكن ثمة حياة ظلت هناك تحت هذا العدم .. ثمة وجود .

فأنا موجود وسط هذه البحار الممتدة من الظلمة والسكون .

أنا موجود تحت الردم .

.. هنا ..

فى أيدوس .

.. فى أيدوس .. نعم ؟

وأنا أتبين المكان حولي جيداً .

إنه محفل هائل .. وهناك زينات أمام المعبد .. والملك والملكة
جاءا محمولين على محفتين ملكيتين .. وهناك خلق كثيرون قد
خروا راکعين حينما ظهر الملك .

الملكة تبسم .. أنا أعرفها .. إنها تفرتارى ، والملك هو أحسن .
والكهنة يروحون ويحيثون بملابس أرجوانية ذات أك
واسعة .

وهذا هو « نون محب » حكيم القصر .

ونون محب يميل على هامساً وهو يشير إلى أحد الكهنة .

— هذا هو الكاهن الذى سيمثل دور أوزيريس .. وهذه
هى الساحرة التى ستمثل دور إيزيس .. وهذا هو ابنها حور ..
إنك لن تستمتع بالمرحبة إلا إذا عرفت قصة الآلهة عندنا ..

وأخذنى نون محب ، وراح يتمشى بى تحت كرمة ذات تعاريش
كثيفة .. وكانت استعدادات التمثيل تجري على قدم وساق وراء
المنصة الكبيرة عل شاطئ النيل ونحن نتحدث .

قال نون محب .

— تقول أدياننا أن الكون بدأ على صورة فضاء أزلى بلا

حركة . ولا حياة . ثم قام فيه رع إله الشمس ، الذى خلق نفسه
بنفسه .. ومن فم رع ، ومن أنفاسه ، ولد شو ، وتفنوت ، الذين
تزاوجا لينجبا نوت ربة السماء ، وجب ، إله الأرض ، وتزواج
جب ونوت ، وأنجبا الأخوة الأربعة : إيزيس ، وأوزيريس ، وست ،
ونفتيس . وهكذا تألف التاسوع الإلهى الذى يحكم الكون .

ثم بدأ الصراع بين الآلهة ، فقتل ست ، أخاه أوزيريس ومزقه
إرباً وألقى بأشلائه فى الجهات الأربع ، واستولى على ملكه .
وأشار إلى المسرح :

— ها هو العرض قد بدأ .. وها هو « ست » ملفعاً بعباءته
السوداء . وعلى وجهه قناع مفزع ، يتسلل إلى المسرح ، ويقتل
أوزيريس .

— هل هو بمزقه بالفعل .

لا .. إنما هى براعة التمثيل ، هى التى جعلتك تظن أنه
مزقه . وما هذه الأشلاء التى تطايرت فى الفضاء إلا أشلاء دمية .

وها هى إيزيس تظهر على المسرح ثائرة باكية ، تجمع أشلاء
أخيها وزوجها القتيل أوزيريس .. وها هى تقرأ الصلوات
والتعاويد . وتضم الأشلاء ، بعضها إلى بعض ، ثم تحيىها بالسحر ،
فتعود إلى أصلها ..

والأناشيد التى تسمعها ، هى أناشيد الفرح يبعث أوزيريس ،
يرتلها الكهنة .

وإيزيس وأوزيريس الآن ، في خيمة الحب ، يتبادلان
وحدريات المعبد يرقصن ويرتلن :

أوزير يا واهب الخصب والتماء

يا باعث الحياة في أجنة البذور

يا واهب الثمار للأشجار

ونائر الأزهار

على ربي الصحارى والسفوح والجبال

وها هي إيزيس قد حملت من قبله أوزيريس

وأوزيريس إله الإخصاب قد أودعها بذرتة

وها هي إيزيس تلد ابنها الإلهي حور . بين أغاني المنشدات :

يا حور .. يا عيوننا التي لا تنام

يا ساهراً على العدالة .

وحور إله الحق والعدالة ، يتطلع إلى اليوم الذي يثأر فيه لأبيه
من قاتله ، ويسترد ملكه ، ويهزم إله الشر : ست ، وأنت ترى
المتفرجون من عامة الشعب ، قد بدأوا الآن يختلطون بالكورس

ويشربون في التمثيل ، وقد انضم الأخيار منهم إلى حور والأشرار
نست ، في المعركة الأزلية بين الخير والشر .

وها هي الأبواق تدوى في نذير الشؤم والحرب .. والمعركة
تدور حامية بين حور ، وست .. والسيوف تلتحم .. والرقاب
تطر .. والضحايا تسقط .. والدماء تسيل .

ويزيس تطلق البخور ، لينتصرا ابنها على عدوه .

وبقية التاسوع الإلهي ، يرقب المعركة الدائرة في حياد .

وهي معركة استمرت ثمانين عاماً .. ولم ينتصر فيها أحد ..
فاقترح ست أن ينقسم كل منهما صورة فرس البحر ، ويلقى
بنفسه في أعماق النيل .. ومن يستطيع منهما البقاء تحت الماء مدة
طول من الآخر ينتصر .

وها هو ست . يلقي بنفسه في الماء ، ومن خلفه حور ..
مهما النيل .

وها هو ست يقذف على الشاطئ بعين حور .. لقد قلع ست
عين حور .. وقطع حور خصية ست .. وها هو يلقي بها هي
لأخرى على الشاطئ ..

وها هما خارجان من الماء في وقت واحد جريحين ، لم
ينتصر أحد منهما ، بعد كل تلك المذابح .

ونحن الآن في فترة استراحة . . ويمكن أن تناول شيئاً من
الطعام .

ودن المسرح يتحول في تلك الأثناء إلى سباط ممدود ، عليه
مئات من أواني الجعة والنبيذ ، وأعداد من سلال التين والعنب ،
والوان من الفطائر والحلوى والدجاج المحمر . . وكل الموجودات
تتركب في الطعام .

وقال لي نون محب ، إن هذه المسرحية تستمر لعدة أيام . . وأن
فصولها العديدة تمثل يوماً بعد يوم ، طوال فترة الأعياد ، وهي
كالعادة لا تنتهي إلى نهاية ، شأنها شأن صراع الخير والشر ، الذي
تدوم بلا نهاية طول الأزل .

وغاب لحظة ، وعاد معه فطيرة ناولها إلى .

— فطيرة مقدسة من فطائر العيد . . هذه الفطائر باركها الكاهن
الأكبر ، بتعاويذه وصلواته ، وهي تزيد من قوة من يأكلها ،
وتطيل في عمره .

قلت فجأة :

— هل تصدق هذا الكلام الفارغ ؟

ولظر إلى في دهشة وقد انعقد لسانه . . بينما أردفت :

— هذه البركات التي يوزعها كاهنك الأكبر ، ومن ورائه

أسوعه الإلهي . . وهذا الكلام الفارغ عن إيزيس وأوزيريس .

والإله رع ، يعبد إلى حور عينه ، وإلى ست خصيته
ويقترح إجراء محاكمة عادلة ، يشترك فيها التاسوع الإلهي .

وست . يشترط أن تجرى المحاكمة في جزيرة منعزلة
وأنلا تحضرها الساحرة إيزيس .

وما هو « عنتي » يجدف بالقارب المقدس إلى الجزيرة ، وه
ست ، وحور ، وبقية الآلهة ، وإيزيس متنكرة في هيئة عجوز
حتى لا يعرفها عنتي .

وما هي إيزيس في الجزيرة ، تسحر نفسها على هيئة عذر
فاتنة ، يقع في حبها ست . ويغازلها ، فتحكي له مصيبتها ، وكيفية
أن ابنها سطا عليه لص وسرق ماشيته من الحظيرة . . وست يج
مستنكراً . . وكيف سطا اللص على الماشية ، وأين كان ر
العائلة ؟ . . إنه لمجرم أثيم . .

وإيزيس تصرخ صراخاً حاداً عند سماع كلماته ، وتتجه
إلى طائر . وتحط على فرع شجرة ، وهي تناديه ساخرة :

إبك على نفسك . . إن فلك هو الذي قالها ، ومهارتك ،
التي حكمت عليك ، أيها اللص الذي سرقت ابني ونهبت ملكه
أيها المجرم الأثيم .

وما هو ست ، يلطم خديه ويذهب باكياً إلى رع .

وتنطلق الأبواق ، وينشد المنشدين معلنين انتهاء الفصل
الأول من المسرحية .

وہل نہ گنہ گار و ہر صہرت عیہ علامت تفکیر
 و ہل .

ہل تصدیق ہدہ لا کادیب الساذجہ ؟

نحب حکیم

- و ہل تکیوں کادیب حیثا تقون خبیثک التي تحبها . .
 حبیبی یا حبة الحب و ہدہ حرة و سعده یا بللا
 معرود علی و ہل تکیوں حبست حقا لا دیب أشعار .
 بعضہم شعر حید و بعضہم شعر رندی و کیم دلتا ند علی
 شئی و فی الحب شئی و صادق

وحدی علی کی سمعت ہدہ سیرت من و ہل

و نصرت ہی ملامح زحل اندی یکلمنی و کدت اسم
 انی أعرفه و انی قائلته و انی جدست إليه و استمعت إلى
 حکمتہ

نہ نہ ہر ہم

ہر ہم و اجیسور مرة أخرى

فہل ہر ہم و یوں محب لا ندی .

ما ایزیس و اوریزیس و حور و ست و ما ہی لا اسماء

تتعرف ہی علی موجودات و شر و خیر موجودات
 کدلت

و ہل یس سنی علی شئی

نہ

ہی محدود اندازہ مثرہ مصححت و اوریزیس

ما لا تصححت علی سنی

و ہل ہی لمطيرة قالا

کی ہدہ نصیرہ صدیقی من یشع کلام حوشت
 و ہر صد شکم حتی صبح فسوف تفل تحت حجابی لمطيرة

قہ و ہل أقصم بمصيرة :

علی شئی حور کک ہد کثیرون من موضوعیت یشارکوی
 شت فی دیانتکم تدبیر مقدمکم فی سرفقت و حرقت ما ہر
 مومیات و حصمت ما ہر من تدبیر و کک لنصوص فی جمیع
 لأحور ہم مرعۃ أنفسهم و تدبیر خوفو فراع و تدبیرہ
 حصمة فی ہرمہ عصیم تشہد علی دلت

قہ فی ہدوء

ہل تدبیر ہدای فی ہرم خوف لیس ہو تدبیر خوف
 و ہر ہل ہی کشفہم نصوص کات کہہ مہرت و ہمیدہ

مومياء خوفو وثابوته وتحفه . مازالت سيمية في مكانه بالهرم ،
م تصل إليها يد . . والتأبوت الخارج . وضع للتضليل .

وكن هذا الكلام قصة - نسبه في كهدهس آش .

هتعت في فضول .

وأين يد توحيد عرفه اهل الحقيقة . إذا كان التأبوت
لدى عثر عليه . برة وهمياً .

أسهل من سرية م تكتشف بعد .

وكيف يمكن وصول إلى تلك البئر ؟

ونظر إلى وان محب في ستغرب .

ولم يستطع أن يخفي دهشته لفضولي الزائد ، فقال ضاحكاً :

— هل تريد أن تشترك مع اللصوص في حملة أخرى .

— أنا . . لا . . لا . . إنما هو مجرد فضول للحقيقة .

— إن المكان لا يعرفه إلا الكاهن الأكبر في معبد الشمس .

وأردف بعد فترة صمت :

وهذا أقول . أخرى بأن المكان مكتوب في بردية . في
مقبرة كهدهس حرم أول ، لدى بني هرم . وقد سمعت كاهناً من



المرتلين في معبد الشمس يقول : إن الباب الحقيقي يوجد على نقطة
ما في الضلع الشرقى للهرم . . والحقيقة كما قلت لا يعرفها أحد .

— وهل يقول كهنتكم أيضاً أن « أبو الهول » تحته غرفة
سرية ؟

— لا . . إن أبو الهول ليس مقبرة . . إنه تمثال الإله آتوم
وهو يمسكه له شمس روع . في رحته في عدم ظلمات كل مساء .
وقد تحول إلى أسد يهزم أعداءه من لجن والمردة من سكان عالم
الظلمات . . والتمثال منحوت في كتلة مصمتة من الصخر . وأمامه
معبد عظيم . . وكان الكنعانيون يعبدونه ، على أنه إلههم « حورون »
أو « حول » ومن هنا جاء لكم اسمه « بو حول » أو « أبو الهول » .
— أنت أستاذ عظيم في التاريخ .

— أشكرك .

— ولكني لا أصدق كيف تكون نون محب ، وأنت تعرف
أشياء لم ترها في عصرك . . وكأنك عشت في كل العصور

— حقاً . . إنه لشيء رائع أن يعيش الواحد منا في كل
العصور .

— لا أفهم كيف يمكن أن تعيش في الماضي وفي الحاضر في نفس
الوقت ، وكأننا كل اللحظات قد تعاصرت بين يديك . وكأننا
الزمن عندك هو الأبد .

ومن يذرت . ربما كان الزمن هو الأبد والفعل . . ربما كان
. . الحقيقة يتوقف على طريقة التي تعيش .

طريقة التي تعيش . . !

وأصرفت ساعتي لحظه . ثم فلت و . فكر

في أعجب ! كيف يمكن أن تكون أنت حرك . وثبت

بأنحر . ثبت مع . من ثلاثة

من نحن واحد

وما متسماً ابتساماً غامضة .

ونظرت إليه . . كان هو البراهما نفسه . . أرجل لذي عش
من الأسماء والأزمان . واحتوى الأبد كله في داخله .

وكان الكورس والممثلون قد بدأوا يتقاطرون على المسرح
ويستعدون لأداء أدوارهم . وكان لكهنة يرتدون أثوابهم الكهنوتية
ويضعون الأقنعة المربعة على وجوههم . . ولكن المنظر كان
يذهب تدريجياً . . ولأشكال كانت تدور وتختلط في سديكة من الو

المبهم تضايق العين . . والموسيقى كانت تتحول إلى ضجة .
كنت أشعر بالضيق الشديد . . وأتقلب في مكاني . . وفتحت
عيني لأجد أن الشمس في عيني . . والغرفة نهار .

ويطيرة سريعة إلى ساعة يدي . كتشمت أني قد نمت كثير
من ثلاثين ساعة متصلة .

وقعت من مكى كى قومه من و
 وكات أهداء حو لعرب مارت تصردى
 هرم لاكر و معرفة سرية نى و تكشف
 لاهم لا يمكن أن يصدق هذين
 و سكت بهم و حم أبو قن أن أسود
 و قد و لست قصوى سرء

و كاشفت أن سيب حى نى فى سكره و لى مصر أعرفه
 و لى م تعد صدحوا استعمل كى مصر قد لى يصرده
 ح كنه م كى نى مدمر من يومى و حتى ساعد قبل صوغ
 شمس حتى أحدها رى و شكر
 و بينا كى أنقل محتو و حاسة الأخرى و لاحظت أن
 السيل لم يعد صاخاً هو لا

و بينا كى تفحصه مصره قبل أن ألقه نفسيل و لاحظت
 عدداً من حبات قمح و حبات من مقبرة أمحوت بين
 طيته
 و كى كى حقه قد علف عن مة حصراء صغيرة و حملت
 نى حبات سنيه فى دهور

بعد أربعة آلاف سنة .

بعد أربعة آلاف سنة . . هل هذا شىء يصدق ؟؟ !

بعد أربعة آلاف سنة . . تدب الحبة . و يقوم الجنين النائم
 من قبوته ؟ ؟ ؟ !

كنت أفكر فى ، حم أبون .

كان هذياناً .. ولكن أى شىء لم يعد هذياناً ؟ ! !

لقد نبتت حبة القمح بعد موات أربعة آلاف عام فى باطن
 لأرض .. وسقت حقائق الواقع غرائب الخيال المجنح .
 م يعد هذاك مستحيل .

كنت معبوماً عن (حم أبون) أنه ابن سفرو . وأحد
 بخوة خوفو . وأحد الذين أشرفوا على بناء الهرم الأكبر فى المرحلة
 الأولى من بنائه .. فقبرته مثل مقبر الأسرة الملكية . لا بد موجودة
 فى الجبانة الملكية حول الهرم .. والوصول إليها ليس أملاً بعيداً .

استخرجت إذناً بالحفر فى الجبانة الملكية .. وذهبت على رأس
 فرقة من العمال إلى منطقة الهرم .

وبدأت بالطواف حول المقابر التى كشف عنها بالفعل . وكانت
 فيها مسروقة ولا وجود لشىء فيها سوى الجدران .

ثلاثة أهرامات صغيرة تحولت إلى ركام . هي مقابر زوجات خوفو الثلاث ، تليها مقابر الوزراء ، وكبار رجال الدولة والكهنة . رسمت خطاً على امتدادها ، وأمرت بالحفر .

وبدأ كل الحفر يجرى .. كنت أقرأ النقوش على كل جدار قائم . وكل قطعة حجر ، وكل صل ملقى على الرمال . بحثت عن إشارة ، أو خبر عن « حم أبون » .

جلبت معي كل المراجع البردية التي ذكرت خوفو وهرمه .. وكل ما كتب من أساطير وقصص ، حول خوفو وأسرته . كنت أعلم أن الحفر سوف يستمر يوماً ..

وكانت السلوى الوحيدة أن أقطع الوقت في الحفر على طريقي .. في بطون الكتب .. وخوفو شخصية أسطورية في الأدب المصري القديم . مثل عنتر عندنا .

ولهذا وجدت أكثر من مادة قصصية تدور حوله .

في بردية يعود تاريخها إلى الأسرة الثانية عشرة ، وجدت هذه القصة الغريبة عن مغاليق الهرم .

كان خوفو يريد دائماً أن يعرف سر مغاليق هيكل تحوت ، صانع مغاليق تماثلها في هرمه .

وسمع خوفو عن الساحر العجوز « ددى » الذي « الذهب يبيع من العمر مائة سنة وعشراً ، ويأكل كل يوم خمسمائة رغيف ، ويشرب مائة إناء من البيرة ، ويأكل فخذ ثور ، ويجعل الأسد يسير خلفه وديعاً كالكلب ، ويعرف سر مغاليق هيكل تحوت .

وطلب خوفو من ابنه أن يسافر بنفسه ليحضر له ذلك الساحر .

وذهب الأمير الصغير إلى قرية سنفرو ، حيث يوجد الساحر .. وكان الأمير يجلس ممدداً على محفة من الأبتوس ، يحملها العبيد .. وعندما وصل إلى منزل الساحر ددى ، وجدته نائماً على حصير أمام عتبة بيته ، واثنان من الخدم يدلكان له قدميه . ونهض ددى لاستقبال الأمير وحياء أحسن تحية .

وقال الأمير : إنه موفد من أبيه الملك ، ليدعوه إلى قصره ليتمتع بأحسن المآكل والمشارب .

قال ددى : في أمان .. في أمان يا حور ، يابن الملك الذي يحبه أبوه .

وذهب معه إلى شاطئ النهر ، حيث كانت السفن راسية في انتظاره .

وطلب ددى أن ينحسروا له سفينة لأجل عائلته ، وسفينة أخرى لأجل كتبه ومخطوطاته ، فخصص له الأمير السفينتين .

ولما وصل ددى إلى القصر ، استقبله خوفو في قاعة القصر الكبرى ، ذات الأعمدة ، وبادره قائلاً : لماذا لم أرك قبل الآن ؟

فأجابه الساحر : يأتي الإنسان عندما يدعى يا صاحب الجلالة .

قال جلالتة : هل صحيح ما قيل من أنك تستطيع أن تعيد رأساً مقطوعاً إلى مكانه ؟

فأجاب ددى : نعم أستطيع ذلك يا مولاي الملك .

فأمر خوفو بإحضار أحد المسجونين المحكوم عليهم بالإعدام . ولكن ددى قال : إنه يفضل أن تكون التجربة على حيوان .

فأحضروا له أوزة وقطعوا رأسها ، ووضعوا جسمها في غرب القاعة ، ورأسها في شرقها ، وأخذ ددى يتلو سحره وتعاويذه ، فأخذت الأوزة تتحرك ، وكذلك رأسها حتى تلاقيا ، فركب الرأس في مكانه فوق الجسد وعادت الأوزة للحياة وأخذت تصبح وأعادوا التجربة مرة ثانية في بطة ، ثم في ثور ، فنجح في إحيائها .

ثم سأله خوفو : إذا كان يعرف سر مغالتي هيكل نخوت ؟

فأجاب ددى : بأنه لا يعرف سرها ولكنه يعرف مكانها .

فلما سأله عنها قال : إنها في صندوق من حجر الصوان في إحدى قاعات معبد الشمس ، وأنه لا يستطيع إحضارها .. ولا يقدر على ذلك سوى أكبر أطفال ثلاثة ، تحمل بهم امرأة اسمها ددت :

فلما سأل خوفو : ومن تكون ددت ؟

ق : إنها زوجة كاهن كرج في بلدة تسمى سخبو .

وتمضي القصة بعد ذلك فممن أن ساحر برش ضيافة خوفو . . وأن خوفو رتب له يوماً فريداً إناء من الجعة . وثوراً كاملاً ، من كرات

ونعرف بعد ذلك ، أن ددت من سخبو حملت ووضعت أطفالها الثلاثة وسخت وحقت من اللقي الشعير ثلاثة تبجان ذهبية يصبحون ملوكاً .

وتروى القصة بعد هذا الغلال سمعت غناء وموسيقى أن هذه الموسيقى صادرة من وحينما نظرت في المكياال وجا أنها لأطفالها ، وأنهم سوف من جميع حتى لا يصل خوفو يحتل كل حفل يعرف

وتقف تمصه ها

والذين خربوا موحود

من قلق .. وعلى حرصه في أن يكون لمرمه مغاليق لا تفتح ولا يصل
إلى سرها أحد ، مثل مغالبة معد تحت

كنت أقرأ في هذه البرديات ، حينما جاءني أحد العمال يهرول
فرحاً ، وفي يده لوح من الاردواز ، عليه كتابة هيروغليفية .
كانت الكتابة أشبه بتحية أو أغنية أو خطبة قيلت في الاحتفال
بتتويج أحد الملوك وكانت ترجمتها كالآتي :

ياله من يوم سعيد ، فالأرض والسماء مبهجان ، لأنك سيد
مصر العظيم .

لقد رجع الهاربون إلى مدنتهم ، وظهر أولئك الذين كانوا
مختبئين .

وأصبح الجائعون سعداء . وقد شبت بطونهم ، وأصبح
الظالمون مرتوين .

ومن كان عارياً ، أصبح يرفل في الكتان الجميل ، ومن كان
أسماً ، أصبح يرتدى أجمل الثياب .

وأطلق سراح من في السجون

أما الأراامل ، فقد تركن أبواب بيوتهن مفتوحة ، وصار يدخلها
بنون .

وابتهجت السفن . وهي فوق المحيط . لأن البحر اختفى موجهه .
وأخذت السفن تصل إلى الشاطئ ، وهي تسير بالرياح وبالمجاديف .
ولم يكن على اللوح إشارة إلى حيث تختفي به ، أو إلى
الكتب .

وذهبت مع العامل إلى المكان الذي اكتشف فيه اللوح ..
ولكني لم أجد مكاناً ، أو قبراً . أو مصطبة ، أو بناء من أى نوع .
ولمنا مجرد كومة من الرمل .

وأمرت بتركيز عمليات الحفر في هذه الكومة

ووقفت على رأس العمال أختبر كل صغيرة وكبيرة تظهر على
أطراف معاولهم .

عثرت في الرديم على جبات من الخرز الأخضر . وتمائيل
صغيرة ، ودمى من العاج ، وجعارين . وثلاثة ألواح أخرى .
بها شروخ متعددة . لكن كتابتها مقروءة .. وهي أغنيات غزل من
أخ لأخته ، ومن أخت لأخيها (كان الغزل والزواج بين الأخوات
أمراً مألوفاً في أيام الفراعنة . وأكثر ملوك الفراعنة . تزوجوا
أخواتهم ، وأخناتون تزوج ابنته) .

تقول الأخت لأخيها في الأغنية :

إلهي .. يا أخي . إنه لجميل أن أذهب إلى البحيرة لأغتسل
أمامك .

وأجعلك ترى جمالي ، وقد ارتديت ثوبي المصنوع من أجمل
الكتان الملكي عندما يبتل .

في أغطس في الماء معك . ثم أعود إليك بسمكة حمر . . وقد
استقرت بحية بين أصابعي . . تعال وانظر إلى .
ويقول الفتى :

عندما أرى أختي آتية . فمح ذراعي لأعانقها . فينتهج قربي في
مكانه مثل مصمور .

إذا دعيتها وفتحت لي ذراعيها . أحس كأنما أصبحت مثل
شخص من بلاد بونت . مضمخ بالعطر .

فيذا قرب . . وفتحت لي شفتيها . أحس بأني قد تشببت دود
أن تذوق الحبة .

ليتنى تست جار يا فتى تقوم عن خدمتها حتى ترى لون
حسها كله

ليتنى كما عسل يهب . ولو مدة تدبر واحدة . لا حس مطر
سي في ثيابه .

ليتنى كما الخاتم الذي في أصابعها .

والسوار الذي في ذراعها .

والعقد الذي على صدرها .

وفي اللوح الثالث أغنية حب رقيقة كمنها كالآتي :

ضياؤها ساطع وجددها منير

جميلة العينين ، عندما تنظر
حلوة الشفتين ، عندما تفتحها لتحدث

لا تنبس بكلمة ، لا حاجة لها

طويلة العنق ، جميلة الثدي

وشعرها أسود يلمع

ذراعها يفوق الذهب في طلاوته

أما أصابعها ، فمثل براعم اللوتس

ثقيلة الأرداف ، نحيلة الخصر

ينبئ ساقاها عن جماله

وما أرشق قدمها عندما تسير

لقد سلبت روحى مع قبلتها

لأنها تجعل أعناق الرجل تنثنى

مستديرة نحوها إعجاباً عند قبلتها

ما أسعد الذى يلثم فيها

فإنه يصبح أقوى من كل الرجال

كنت أمام قبر شاعر ، أو أمير مولع بجمع المخطوطات
الغنائية .

. . .

لم يسفر الحفر طول النهار عن شيء جديد .. أخرجت المعاول
قناطير من الرمال .. ثم لا شيء .

كانت قطع الحجارة التي يعثر عليها مفتتة .

وتحت الحجارة كنا نجد تلالاً أخرى من الرمال .

وحينما كانت الشمس تغرب ، كان اليأس قد بلغ منى مبهله .

وكنت أدور في مكاني مثل نحلة قطعوا رأسها .

كنت أفكر .. وأعصر دماغى .

وكل مكان في رأسي أصبح مملوءاً بكلمة واحدة هي

« حم يون » .

حينما خرقت أذنى صرخة يئوسية .

لند سقط أحد العمال في حفرة .

وأمرعنا نحو العامل وانتشلناه ..

ونظرت في المكان حيث انزلت قدميه وسط الرديم ..

وبدأنا نزيل الرمال .

لم تكن حفرة .. وإنما كان بئراً ..

وكانت سلام البئر واضحة.

كانت تنزل درجة درجة ، إلى قرب القاع ، حيث تبرز
جوانب سقطة حجرية كبيرة ..

أخيراً ..

أصبحنا على بعد خطوات من غرفة الدفن

ونزلت الدرجات .. درجة .. درجة .. وقلبي يادة من
الانفعال .

• • •

وصلت إلى الدرجة الأخيرة في قاع البئر ، وكان قد سبقني
هناك بعض العمال .. وكانوا يعملون معاولهم في السقطة
الحجرية ..

وبمجهود قليل أمكن إزاحتها ..

وانكشفت الغرفة الصغيرة ذات السقف الواطئ أمامي ..

وكان هناك تابوت من الجرانيت في وسطها محفور عليه اسم
« رحم أيون » .. وكان التابوت مغطى بغطائه ، ومنظره يبشر بأن
المومياء الراقدة بداخله لم تسرق ..

ورفعنا الغطاء الجرانيتي ، ونحن نتعلل بالآمال لنفاجأ ،
بالتابوت خاو على عروشه والجثة مسروقة ..

لمنظر المعتاد الذي يكسر للقلب .. والذي يتكرر في كل مقابر
هذا العصر ..

أغلب الظن أن الهكسوس لم يبقوا حجراً على حجر في تلك
الأيام .. ولم يتركوا معبداً أو مقبراً إلا خربوه ..

وكنيت أقرأ النقوش الهيروغليفية على الجدران ، وفيها يروى
حم أيون ، الأعمال التي قام بها .. كيف أنه قام على رأس بعثة
إلى جبل المغارة بسيناء لإحضار الفيروز والنحاس .. وكيف نقش
اسم أبيه ملك المعظم سليل الآلهة خنوم خوفو وى (الاسم الكامل
لخوفو .. وخنوم وهو الإله صانع البشر ، وهو يرسم دائماً على
جدران المعابد أمام محله الفخارية . وهو يصنع مخلوقاته البشرية)
على مناجم النحاس (وجد الاسم محفوراً بالفعل في مناجم النحاس
بسيناء) .

ويروى حم أيون ، في مكان آخر ، كيف رأس بعثة إلى مدينة
جبيل بلبنان . لإحضار الأخشاب .. وكيف بنى معبداً مصرياً في
جبيل ، لعبادة إله الشمس .

وكيف اشترك في بناء الهرم الأكبر ، وفي هندسة المعبد
الجنائزى أمامه . وكيف رصف أرضية المعبد بحجر الدولوريت
الأسود المقطوع من محاجر الفيوم .

وكيف أنشأ جسراً ضخماً ، ينزل من الهضبة حيث الهرم إلى
الوادي حيث معبد الوادي الكبير ، ورصد الفنانين لخرافته وتزيينه
باللوحات الجميلة (لم يكتشف المعبد ، ولا الجسر بعد ومكانه
بحسب الكلام يقع تحت نزلة السماء) وفي أسفل الكلام إشارة عن
تغيير في تصميم الغرف الداخلية بالهرم ، وتعديل في بناء مسالكه
وممراته .. لكن النقوش الهيروغليفية متآكلة ، والجدار معطم
بشكل يجعل القراءة مستحيلة .. لكن ما لفت نظري ، هو رسم

هرمى في أقصى الجدار ، وعلى ضلعه الأيمن (بالنسبة لوضع
الجدار والمقبرة يكون هو الضلع الشرقى) علامة ، ويبدو أن
هـ شرح للنص المكتوب ..

وربما كان الكلام عن مدخل على الضلع الشرقى للهرم كما قال
نوب .

احتمال .. مجرد احتمال ..

ولكن بدون هذا الاحتمال يبدو وجود الرسم الهرمى غير
مفهوم ، لا إذا كان حرفاً هيروغليفياً جديداً لا نعرفه في قواميسنا .

كنت منهمكاً في قراءة الكتابة الهيروغليفية ، حينما قال لى
العامل بجوارى أن هناك سرداب .

وكان العامل يطل من طاقة مستديرة في الجدار ..

وأسرعت إلى حيث يطل ، ووضعت عيني في الطاقة . لأجد
تمثلاً محطماً . أغلب الظن أنه تمثال حم أيون نفسه .. وعلى مدى
ما ترى العين ، كان هناك سرداب طويل .

وكان لابد أن نوسع الطاقة ، لندخل إلى السرداب ..

وكانت على جدران السرداب ، صلاة إلى حورس ، الذى
يرعى أجسام الموتى ، ليبدل الميت على طعامه ، ويعاونه على أن
يتغذى من قربانه . ويتنفس الهواء الطلق . حتى لا يختنق في
صندوقه ، ويجموع ويأكل من برازه ، ويشرب من بوله .

وعلى جانبي السرداب ، تراصت صفوف من أواني الجذ
الفخارية .. وفي أحد الأركان إناء كبير ، فيه عدد من اللغافات
البردية .. الكنز الثمين الذي كنت أبحث عنه ..

* * *

وحينما عدت إلى مكاني في مساء ذلك اليوم ، كانت هناك
أحلام كثيرة تراودني ..
أن خرافة « حم أيون » لم تعد خرافة ..
ونقوش المقبرة أثبتت أن تصميم الغرف الداخلية للهرم قد
أجرى فيه تعديلات ، والمسالك والممرات السرية ، رسمت لها
مداخل جديدة ..

والعلامة على الضلع الشرقى للشكل الهرمي المرسوم ، لا بد
أنها تدل على شيء ..

كنت أقرب بسرعة من السر ..

وبسطت البرديات أمامي ..

كانت مجموعة من الوصايا ..

مررت عليها بسرعة بحثاً عن هدي ..

ولكن لم أجد سوى وصايا ، من السطر الأول للأخير ..

والظاهر أنها كانت الوصايا التي حفظها حم أيون عن أسلافه
.. أو أنها جزء من كتاب الوصايا الذي كان يعلمه المعلمون في
ذلك العصر ..

تقول البرديات :

احذر من الاقتراب من النساء في أي مكان تدخله ، فقد
انحرف ألف رجل عن جادة الصواب بسبب ذلك .. إنها لحظة
قصيرة كاللحم ، والموت جزاء الاستمتاع بها .

لقد سمعت بأنك تجرى وراء ملذاتك ، وتذهب من شارع إلى
شارع ، حيث تفوح رائحة الجعة من فمك ..

إن الجعة تنفر الناس منك ، وتودي بك إلى الهلاك ، وتجعلك
كدفة مكسورة في سفينة ، لا تفيد في التوجيه إلى يمين أو يسار ..

لا بد اخلك الغرور بسبب علمك ، ولا تختال وتنفخ أوداجك ،
لأنك رجل عالم .. استشر الجاهل ، كما تستشير العالم ، فما من أحد
ستطاع أن يصل إلى آخر حدود الفن ، ولا يوجد الفنان الذي
يبلغ الكمال في إجادته ..

الحديث الممتع ، أشد ندرة من الحجر الأخضر اللون
ومع ذلك ، فربما تجده لدى الأرقاء والجواري اللاتي يجلسن
الرحى ..

هدي من روع الباكي ، ولا تنظم الأرملة ، ولا تحزن
من ثروة أبيه ، ولا تطرد موظفاً من عمله ، وكن عاقل من
مظلوم ، بضمير الانتقام من ظالمه ..

لا تقتل ، فإن ذلك لن يكون ذا فائدة ، بل عاقب بالضرب
والحبس ، فإن ذلك يقيم دعائم البلاد ، اللهم إلا من يثور عليك .
وتتضح لك مقاصده . فإن الله يعلم خائنة القلب ، والله هو الذي
يعاقب بالموت ..

لا تقتل رجلاً إذا كنت تعرف جميل مزاياه .

ولا تقتل رجلاً كنت تتلو معه الكتابات (يعني زميلك في
الدراسة) .

لا يوجد شجاع في ظلام الليل . ولا يمكن لإنسان أن يحارب
وهو وحيد .

لا أصدقاء لأحد في يوم الأسى .

إذا كان لسانك هو دفة سفينتك . فإن إله الكون هو ربانك .

إن الكلام يتدفق بسرعة عندما يحس القلب بالأذى . وهو
أسرع من الشلال عند مخرج المياه . فاحذر من الاندفاع ساعة
الغضب ..

لا تقل « ليست لي خطيئة » وتشغل نفسك بالتفكير في
خطايا الناس .. فإنه وحده هو المختص بالحكم في خطايا الناس وهو
الذي ختم على أقدارهم بأصبعه ..

لا ترقد في الليل خائفاً مما يأتي به الغد ، فالله يحقق دائماً
ما يريد ..

لا تتخذ الرجل سريع الغضب لك صاحباً .

لا تكثر من إصدار الأوامر إلى زوجتك في منزلها ، إذا كنت
تعلم أنها سيدة صالحة .. لا تقل لها أين الشيء .. أين مكانه .. أين
أجده .. إذا كنت قد وضعت في مكانه المعهود .. لاحظ بعينيك
والزم الصمت حتى تدرك جميل مزاياها ..

يا لها من سعادة حينما تضم يدك إلى يدها .. كثير من الناس
هنا لا يعرفون حال الإنسان ، دون حدوث الشقاق في منزله ..

ليكن قلبك ثابتاً غير متقلب ، ولا تدع امرأة أخرى تسرق
قلبك ..

ضاعف الحبز الذي تعطيه لأهلك ، واحملها كما حملتك ..

لقد كنت عبثاً ثقيلاً عليها ، ولكنها لم تتركه للآخرين يحملونه ..

لقد حملتك تسعة شهور في بطنها ، وظلت مغلولة بك ، وظل
تسميها في فمك مدى ثلاث سنوات ... وبالرغم من أن قاذوراتك
شيء تنفزز منه النفس ، فإن قلبها لم يتقزز .. ولم تقل ماذا أفعل
في هذه القاذورات ..

لقد أدخلتك المدرسة عندما ذهبت لتتعلم الكتابة .. وكانت
تذهب من أجلك كل يوم تحمل إليك الخبز والجمعة من متزنا ..
والآن وأنت شاب ولك زوجة ، تذكر ما فعلته لك أمك .
ولا تجعلها ترفع يديها إلى الله لتشكوك ..

لا تميز بين شخص ذى حيثة . وشخص فقير . بل علم كل
إنسان بحسب عمل يديه ..

لا تحدث صرراً لمنى ثمة غيرك . ولا تبني قبرك من أحجار
الحرائب .

إن أذن الطفل موضوعة فوق ظهره . وهو يحسن السمع عندما
يضرب .

لا تقضى يوماً واحداً دون عمل . وإلا فيكون الضرب
نصيبتك .

إذا جلست على الأكل مع أشخاص كثيرين ، فلا تقبل كثيراً
على الطعام . حتى ولو كنت تشتهي . فإنه من المخجل أن يكون
لإنسان شرها ..

إن كأساً واحدة من ماء تروى الظمأ . ولا فائدة من الإفراط
في الشراب ، فلن يقوى هذا قلبك .

تذكر أن شبابك هو أئمن كنز تملكه . وافعل في شبابك ما يبعينك

في وأنت لا تعرف شيخوخة . حيث العمر ساكن
في وحيث ضيق كيان . وأدب مع شاب . قصير .
محدث كثير سكين . ولأنك مسدود لا تستشعر فخر . وقيمة
.. .. . كلامهم مؤلم . وطعمهم حار . كأنهم نسيج . وعقل
نظري في كل الأمور .

دلت هذه خلاصة الكتب بوصف وأنت هذه بوصف ..
كنت مكتوبة شعراً .

وكتب هذه نهاية . حصلت عليه من معرفة . حميد ..

هل كان مقدراً لي أن أمضي وحدي لاكتشف بقية نسر ..

إن كل الدلائل كانت تشير إلى أن الضلع الشرقي لهرم هو
.. .. . نسر

والضلع الشرقي هو أصعب الأماكن صعوداً في هرم . فأحجاره
كبيرة وسليمة وحادة الأركان ، وكل حجر منها كالجبل .

كنت مستغرقاً في التفكير . حين سمع نهرى كومة بوسصة
.. .. . كتب

من أعلمت تمره طول هذه الأيام . حتى تر كمت هكذا ..

وكانت أغلبها استفسارات من المتحف المصري عن معومات

ومواصفات خاصة بالقطع الأثرية التي اكتشفناها أخيراً، وعن ظروف كشفها ..

أما الخطاب الأخير فقد كان عليه طابع من الهند ..
وفتحته في قلق ..

كان من أمرى خان ، ينعى فيه وفاة البراهما ، ويسألني عن أحوالي ، ويقول إن البراهما سأل عني قبل أن يموت ..

وتاريخ الخطاب ١٠ ديسمبر وهو تاريخ متفق مع ليلة اكتشاف لمقبرة أمحوتب ، وتلك الليلة التي قضيتها في أحلام مشوشة مختلطة ، وكانت صورة البراهما تختلط على بصورة أمحوتب طوال الليل ..

أمسكت بالخطاب في رهبة ورحت أفكر في البراهما ..

ونخيل إلى أنه يملأ المكان حولي ..

وحاولت أن أستلهمه الصواب ..

إذا كان الإنسان له بقاء بعد الموت ..

وإذا كانت الأرواح المتحابة تتواصل ، فلا شك أنه سوف يلهمني ..

لا يمكن أن يكون الإنسان هو ذلك التركيب المعقد من البروتينات والأملاح المعدنية ولا شيء غير ذلك .

إن هذه المواد البروتينية الحساسة ليست سوى جهاز الكتابة تنقشه في يد روح شفيفة تصور به فكرها وإلهامها ..

كنت أشعر أنه لا بد من المضي في طريق إلى آخره لاكتشف الحقيقة أو أهلك دونها .

ولم يكن أمامي سوى سبيل واحد ..

هو الصعود على طريق الآلام ..

— ولماذا تبحث عن باب سرى ، لتدخل منه إلى ماذا ؟؟

إن داخل الهرم أصبح مكشوفاً ، لا سر فيه ..

لمسالك والممرات وغرفة الملك .. وغرفة الملكة .. والبئر كلها أماكن اكتشف أمرها .. وفي إمكانك أن تدخلها بقرش ومعلك دليل من مصلحة السياحة يشرح لك ما تراه مجاناً ..

وحينما قلت له : إن هذه الممرات والمسالك والغرف مزيفة .. وأن تابوت الملك الفارغ وضعه الفراعنة للتضليل .. عاد يضحك .. ونظر إلى كأنه ينظر إلى مخبول ..

— أنسيت أن الهرم كان نهياً مباحاً لكل مقتحم من أيام الهكسوس إلى أيام محمد على ، حيث فكر التركي الغازى أن يقتلع حجارتها ، لينتجى بها القناطر الخيرية .. وأنه لم يوجد لص هاو ، أو محترف ، خلال الأربعة آلاف سنة ، التى مضت إلا ونقبه بحثاً عن الأسرار الخرافية التى تكلمنى عنها ..

الهرم لم يبق منه إلا خرابة مفتوحة نهبا للصوم ..

الهرم لا سر فيه .. أنت تعلم ..

ولم أشأ أن أقول له أنى أحلم بالفعل ..

ولم أشأ أن أروى له ما رأيته من أمر البراهما ، ونون محب ،

« الصعود على طريق الآلام » تعبير متواضع جداً عن الصعود على الهرم من حافته الشرقية ..

إنها مخاطرة رهيبة مخوفة بالموت فى كل خطوة ..

كل حجر يحتاج إلى ساعة من الاحتياال حوله ، فهو أملس وسامق كالجل ، ولا بد أن تنبش فيه الأظافر والخطاطيف حتى تنسلق عليه ..

وفى سن الخمسين أصبح كل شىء صعباً ..

كنت أستريح بعد كل حجر ، وكأنى قطعت عشرة أميال فى الجرى حتى فقدت أنفاسى ..

لقد حاولت أن أحصل من مدير مصلحة الآثار على أمر بتجهيز بعثة لاستكشاف الحافة الشرقية للهرم ، ورفع السقالات اللازمة ..
وحينما علم المدير أنى أبحث عن باب سرى للهرم ضحك .. ضحك حتى استلقى على قفاه ..

حتى لا يفضعني في قبض الكتاف ، ويرسلني إلى مستشفى
المجاذيب ..

وأخذت المخاطرة كلها على عاتقي وحدي ..

لم أجد دليلاً يقبل أن يصاحبني في صعودي عبر هذه الحافة
الخطرة .. ولم يكن منهم من يعرف طريقه لعبور هذه الحافة
بالفعل ..

كنت أول من يرتاد هذا الطريق ..

وكان يعزيني أنني لن أحتاج لأكثر من الصعود إلى الثلث الأول
من الحافة .. فالعلامة كانت في مكان ما بالثلث الأول ..

إن آلامي لن تطول ..

وكنت أفحص كل حجر من جميع جوانبه قبل أن أرشق فيه
الخطاف ، باحثاً عن مكان يمكن أن يكون باباً .. وأتمسك بالحجر
الصدد وأدق عليه . وأسمع الاهتزازات الصوتية بأذني ..

كانت كل كتلة حجرية مصمتة من جميع جوانبها .. فلا أثر
يدل على تجويف أو ممر مفرغ بالداخل ..

ورحلت أرشق الخطاف وأصعد ..

وفجأة أحسست بالخطاف ينزلق ويهوى . ورأيت نفسي
.. هو من حلق . وأرتطم في أكثر من مكان من جسدي ..
صبغت سماء على الأرض .. ورأيت وجه البراهمة نظراً إلى
شروق

* * *

وحينما فتح عيني كنت راقداً في سرير في مستشفى
.. من وسقدي في حائر . وحول صدري أشرطة عديدة
لاصقة حتى العنق

وكان على رأسي طبيب ينظر إلى نظرة حانية ويهمس :

لقد نجوت بمعجزة ..

وكنت أحمق في الجبس والأربطة اللاصقة التي تحيطني من كل
مكان .. غير مصدق لهذه النجاة المزعومة .

ويردف الطبيب :

نعم . لقد كسرت ذراعك وساقك . وتخطمت بعض
ضلعك .. ولكن رأسك لم يصب بسوء . وعظام حوضك سليمة
وهذا أمر خارق بالنسبة لرجل يسقط من أعلى الهرم ويرتطم
مرة بعد مرة بأحجاره .. لقد كانت الملائكة تحملك على يديها ..

وكأن المدير يقف بجوار الطبيب ويهتف في دهشة :

— أنت فقدت عقلك بلا شك .. كيف تفعل هذا الفعل :
ألم أقل لك إن ما تفكر فيه هو الجنون بعينه ..

نعم إنه الجنون ..

وحياتنا كلها جنون ..

نحن نأكل الجوع ، ونشرب الظمأ ، ونحصد الندم . ونموت
جهلاء ، كما ولدنا ، لانعرف من أين وإلى أين وكيف ..
ولماذا .. كنا .. وكيف أصبحنا .. أليس هذا هو الجنون ..

كنت أفكر وشفثاي مضمومتان ، وعيناي حاثمتان في الغرفة
البيضاء كأنها الوهم .. وأنفاسي تؤلني كأنها مناشير مـ ولا أقوى
على الكلام ..

وغرس الطبيب حقنة المورفين في ذراعي .

وهدأت المناشير ..

أصبحت مثل أفاعى لينة قلقت حول صدري وتضغط عليه في
حنان مخيف ..

خيم الظلام على الغرفة ..

وانقطعت خطوات النوبتجي السهران من الممر ..

وانسدل سكون رهيب ..

إن ما قاله الحكيم المصرى القديم في كتاب وصاياه صحيح ..

حقاً .. لا يوجد شجاع في ظلام الليل .. ولا يمكن لإنسان
أرب وهو وحيد ..

بني أشعر بأنى أقرب من ختام قصتي ..

أشعر بالخوف يغتصبنى اغتصاباً ..

أشعر أنى فقدت الشجاعة ، وفقدت الوسيلة إلى أى شىء ..
فهاهما ذراعى مكسورتان ، وأنفاسي هي الأخرى متقطعة
مكسورة ، وقلبي كبير ، وعقلي عاجز ..

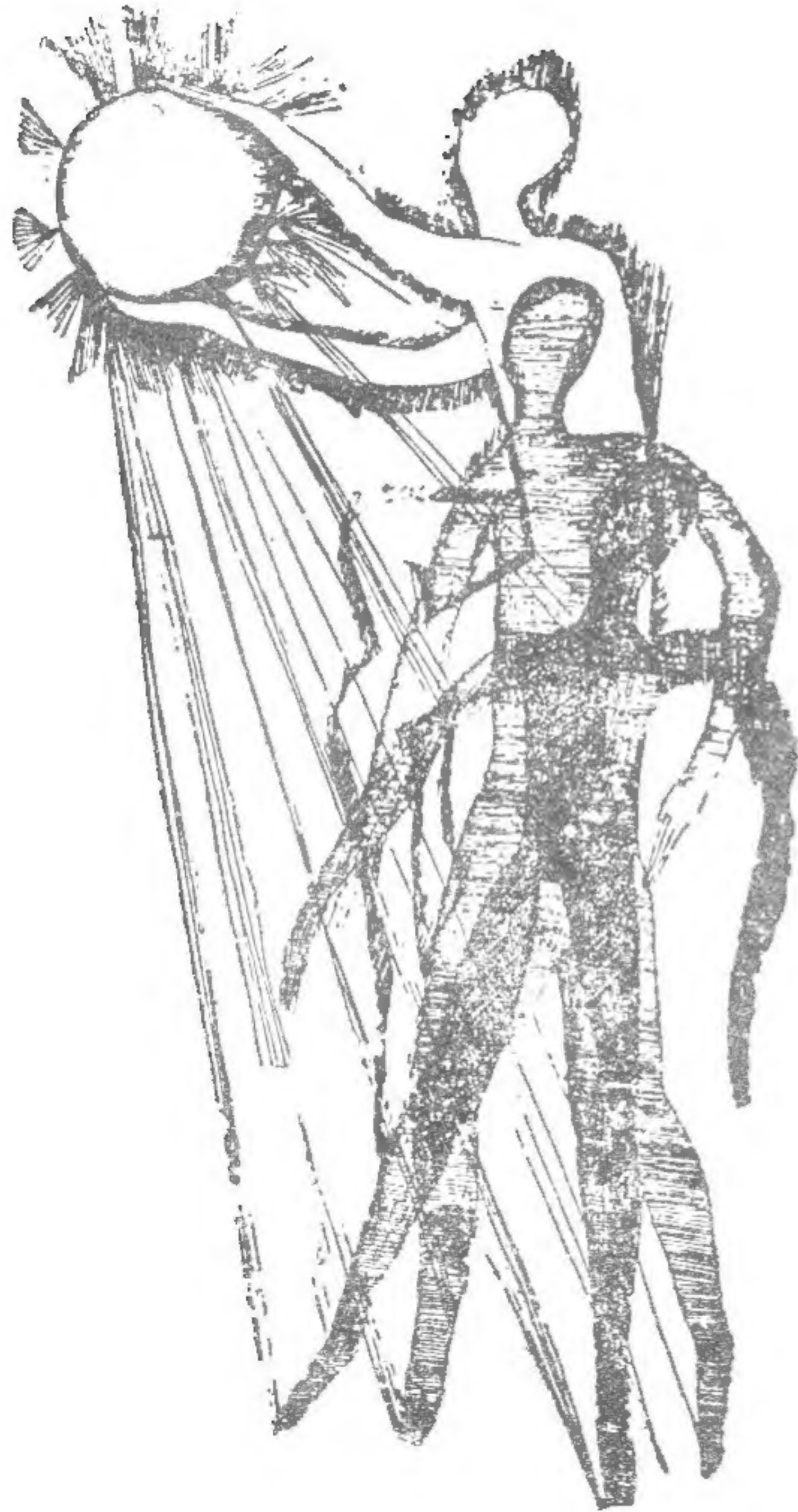
لقد بلغت نهاية القدرة على طريق الآلام ..

وعلى الآخرين أن يكملوا الرحلة مستدلين بالعلامات القليلة
التي وضعتها على الطريق ..

لم أعد أستطيع أن أفعل شيئاً ..

وكيف يستطيع عقل وحيد ، يتحدى رؤى الواقع الصفيق أن
يفعل أكثر مما فعلت .. ما أنا إلا إشارة على الطريق ..

والطريق طويل بلا نهاية .. ولا بد أن تتكاتف كل العقول



لإضاءته واكتشافه . . إن ما نعلمه قليل . . وما نجهله كثير
لاحد له . .

والإنسان عدو لما يجهل . . وهو لهذا لا يحاول أن يفهم . .
ويغلق كل باب يدخل منه النور بغائه وتعصبه . .

ولكن الحقيقة أعظم من أن يحتكرها عقل واحد ، أو منهج
واحد . .

والحياة فوق جميع المذاهب ، لأنها أصل لما جميعاً . .

ولكن التعصب يسد الطريق على كل عقل يحاول أن يجتهد . .
ويحجب عنه المدد الذي يأتيه من ينبوع العظيم الذي لا ينضب
. . من الحياة . .

وحينما تتحكم المذاهب في الحياة . : تتجمد الحياة وتوقف
وتموت . .

تموت الدهشة . . ويموت الفضول والخيال والابتكار . .

تموت النشوة الخارقة التي يبعثها المجهول ، وتتحول الحياة إلى
قواعد وقوانين يسمونها علماً . . وهي ليست من العلم في
شيء . .

العلم مفتوح الذراعين لكل الحقائق . .

العلم لا ينحجر من مناقشة الوهم والهلديان والخرافة . . لأن
المعرفة غير المحدودة . قانه نه ، والتواضع خلقه . .

العقل لا يخشى اللامعقول .

والإرادة لا تعرف المستحيل . .

سوف يرى الكثيرون في بعض ما رويته في قصتي خرافات

لماذا لانحاول أن نفهم معاً ، بدلا من أن نحتقر ما نجهله ،
ونقول عنه خرافات . .

إن الحقيقة أقرب إلينا من أصص الرياح ، التي نضعها تحت
نوافذنا ، لو حاولنا أن نفهم .. إنها تحت أنوفنا ، ولكننا نستعمل
أنوفنا وفقاً لتقاليد وضعت لنا من قبل . . لماذا لانحاول أن نشم
في حرية ؟

لماذا لاننظر ببراءة الطفل ، لنرى الأشياء في جدتها المدهشة ،
ولنرى الظواهر نابضة ، موحية بآلاف الحقائق . .

* *

ليس لدى ما أضغه لخواة الغيب . . فما عندي قد قلته .

وقدرتي بلغت نهايتها

وكل ما أملكه ، هو أن أشير إلى الحقيقة . أشير إليها بذراعين
مكسورتين .

إن حياة تنتهي بالموت ، ولا بقاء بعدها ، هي حياة لاتستحق
أن نحياها .

إنها ليست حياتنا .

إن حياتنا أعظم من أن تنتهي إلى الدود والتراب .

إن القداسة التي تنسم بها الحياة في صميمها ، تنفي عنها هذه
النهاية الهائلة .

هل فكر أحدكم في نفسه ؟ .

هذه النفس التي صيغت من مادة الهديان والأحلام والرؤى .

إن أبجل ما أخرجته لنا حضارة الإنسان ، بدأ حلماً . .

كل ما يقوم على الأرض من مدن وأبراج ومصانع ومعابد
بدأ حلماً وهدياناً ورسوماً وخطوطاً مجردة في الفراغ . . بدأ هباء
في عقل . .

من نبضة خيال ، قام العالم . .

كلمة السر هي هنا . .

في داخل نفوسنا ..

لو أننا فكرنا في نفوسنا ، لروعتنا أكثر من كل صنوف السحر
ولكننا نمضي منطلقين في رحلة العمر . وعيوننا مقلوبة
إلى الخارج .. لا ننظر إلى وراء .. ولا نتوقف لتفاسل ..
ولا نتأمل .

نلتبس الأسرار ، والأسرار فينا ..

ونبحث عن السحر .. ونحن السحر ..

، ننتظر المعجزة ، ونحن المعجزة ..

كيف يمكن أن تصبح هذه النفس حفنة من تراب ، وتنتهي
إلى لا شيء ..

لا نموت .. كما أن البراهمة لا يموت .. كما أنه عاش في
كل الأمكنة ، وفي كل الأزمنة .. كما أنه ولد في مختلف الحضارات
كما تولد الكلمات . ليقول نفس الغايات .. وكأنه كان يعيش
حضارات متعاصرة .. كذلك نحن يتعاصر فينا الماضي والحاضر ،
ونرى سريان الزمن من منظار الأبدية .

لا موت هناك

ليس بعد الحياة ، إلا حياة ..

وليس في الكون المتحرك نقطة سكون ..

الكل يتحرك في هورة أبدية لانهاية لها ..

كما تخرج الفراشات من الشرائق .. كما تخرج السويقات الحضر
من حبات القمح المدفونة أربعة آلاف عام .. كذلك نخرج من
حياة ، إلى حياة ، في استمرار أبدي ..

أقول هذا لمن يجيئون بعدى ..

وأقول لمن يسألني عن متوسط عمر الإنسان ..

إنه اللانهاية ..

لوحة العلاف للفنان
حلمي التوني

اللوحات المنحوتية للفنان
إيهاب شاكر